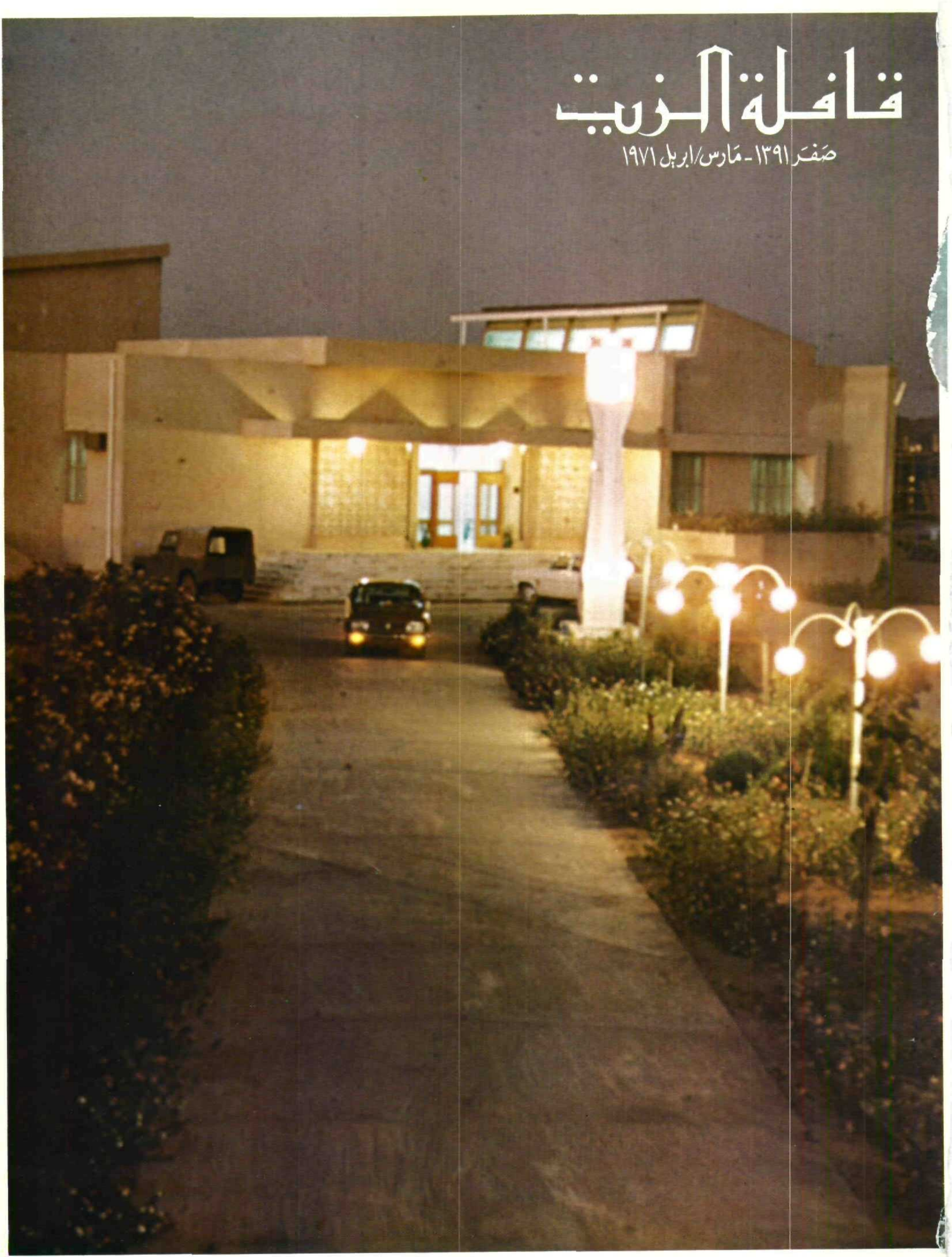

قافلة الزيت
صفر ١٣٩١ - مارس/ابريل ١٩٧١



نفر من طلاب جامعة الملك عبد العزيز الأهلية يستذكرون
دروسهم بين أزاهر الربيع التي ازدانت بها فناء الجامعة.
تصوير : علي محمد خليفه

بسم الله الرحمن الرحيم

قافلة الزيت

العدد الثاني المجلد التاسع عشر

تصدر شهرياً عن شركة الزيت العربية الامريكية لموظفيها
ادارة العلاقات العامة
توزع مجاناً
العنوان صندوق البريد رقم ١٣٨٩ الظهران - المملكة العربية السعودية

محتويات العدد

آداب

الصفحة

بحوث

استطلاعات

صورة الغلاف

نفر من طلاب جامعة الملك عبد العزيز الأهلية يستذكرون دروسهم بين أزاهر الربيع المونقة التي ازدان بها فناء الجامعة .

تصوير : علي محمد خليفة

المدير العام: مصطفى حسن الخان المدير المسؤول: علي حسن قبنا ديلي
رئيس التحرير: منصور مدني المحرر المساعد: عوني ابو كشك

ALMUTAWA PRESS CO. DAMMAM, SAUDI ARABIA

أصداء البيئة في الأدب

بقلم الدكتور أحمد الحوفي

إذا كان الأديب يتأثر بعوامل عديدة في حياته وفي انتاجه الفني ، تشكل أخلاقه وعاداته ومزاجه ، وتطبع انتاجه بطابع معين ، كالنظم السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية ، فانه لا ريب في أن البيئة الطبيعية هي المؤثر الأول ، والعامل الفعال ، حتى ليصح أن نشبه النفس الانسانية بالقيثارة ، توقع عليها الطبيعة ضروبا من الألحان والأنغام ، هي رجع لما في البيئة الطبيعية من عوامل ومظاهر ، أكثر مما هي صدى لغيرها من المؤثرات .

وليس يخفى على الباحثين أن للبيئة أثرها العظيم في مفردات اللغة ، لأن اللغة وسيلة التفاهم والتعليم والإخبار ، والذين يعيشون في بيئة واحدة يتواضعون على كلمات خاصة نابعة من بيئتهم ، ويطلقون أسماء معينة على مسميات يعرفونها .

ولهذا نجد البيئة الصحراوية غنية بكلمات متصلة بالرمال والتلال والخيام والأبل وحيوانات الصحراء ونباتاتها وعاداتها ، على حين أنها فقيرة فيما يتصل بالبحر والسفن والزراعة والملاحة .

ونجد البيئة الزراعية ثرية بكلمات دالة على الزروع وآلات الزرع والحصاد ، وهي في الوقت نفسه قليلة الكلمات الدالة على ما يتصل بالصحراء .

أما البيئة البحرية فان في لغتها كثيرا من الكلمات التي تدور حول البحر والموج وحيوان البحر وعلى السفن والملاحة ، ولكن كلماتها الدالة على البيئة الصحراوية أو الزراعية قليلة ضيقة النطاق .

فاذا تجاوزنا المفردات الى الخيال تبين لنا أنه وليد البيئة أيضا . فسكان الصحراء ينتزعون منها صورهم وأخيلتهم ، ولهذا شبهوا الشجاع بالأسد والحليم بالجبل والقوي بالجلمود ، وانتزعوا من بيئتهم صورا شتى في غزلهم وفخرهم ورثائهم ومدحهم ووصفهم ، وجاءت كناياتهم مستمدة من بيئتهم البدوية ، فقالوا مثلا في توثيق الحلف والمعاهدة الدائمة : « ما بلّ بحر صوفة ، وما أقام رضوى في مكانه » ، على حين أن القضاة في جزيرة « مان» البريطانية « Isle of Man » كانوا اذا أوثقوا قسمهم على مراعاة العدالة والقانون قالوا : « اننا سنستقيم في تطبيق القانون استقامة العمود الفقري في ظهر سمكة الهيرنج » .

كذلك كنى العرب عن العبث في تقديم شيء الى من يملك الكثير منه بقولهم : « كمستبضع التمر الى هجر » ، وعبر عنه الانجليز بقولهم « كناقل الفحم الى نيوكاسل » ، وعبر عنه المصريون في العصر الحديث بقولهم « كبائع الماء في حارة السقائين » .

وهكذا يستمد كل قوم تعابيرهم من بيئتهم ، ويتأثرون بها في تخيلهم وفي تصويرهم .

على أن للبيئة أثرها في ذوق أهليها ، وفي مقاييسهم للجمال والقبح . فالعرب استملحوا العيون الدّعج ، والعيون الحور ، وأعجبوا بالدّعج في الأبقار ، وبالحور في الغزلان(١) .

ولكن التركمان استملحوا العيون الخزر ، والوجوه العراض المستديرة ، والأعناق القصار ، لأن بيئتهم صنعتهم على هذا الغرار .

وليس من شك في أن اتساع جزيرة العرب يجعل تعميم الأحكام تزيدا ومجانبة للصواب ، لأن الجزيرة تمتد امتدادا طويلا بين الشمال والجنوب والشرق والغرب ، ولأن الأرض تختلف اختلافا كبيرا في الانخفاض والارتفاع ، وبعضها قريب من ساحل البحر ، وبعضها موغل في البعد عنه ، ولهذا اختلف الجو وتعدد المناخ .

فهناك حر كأنه زفير النار ، وسموم كأنفاس اللهب . وهناك برد تتقفع منه الجلود ، وتتصلب الأطراف . وهناك جو معتدل أو قريب الى الاعتدال .

وهناك قحط وجفاف ، وغيث دافق ينصب ، فيجري على الأرض في مسايل أو في جداول ، ورذاذ يغني بعض الغناء .

(١) الدعج : شدة سواد العين مع سعتها . الحور : شدة بياض البياض وسواد السواد مع استدارة الحدقة ورقة الجفن .

وعلى نجد تهب نسائم الصبا من الشرق ، وهي محبوبة ، أكثر الشعراء من ذكرها ومن التغني بشذاها ، كقول الصمة بن عبدالله القشيري :

أقول لصاحبي والعيس تهوى
بنا بين المنيفة فالضّمار
تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد
وريّا روضه بعد القطار
وأهلك اذ يحل الحي نجدا
وأنت على زمانك غير زار
شهور ينقضين وما شعرنا
بأنصاف لهن ولا سرار

والحق أن جزيرة العرب خالية من الأنهار الكبار ، وقليلة الأمطار الغزار كالتي تسقط على الحبشة ، لأن جبال الجزيرة ليست شواهق .

وما من شك في أن المطر ينبوع حياة الناس ، بمائه يطفئون ظمأهم ، ويسقون دوابهم وأنعامهم ، وعليه تترعرع الأعشاب والنباتات ، فيطعمون ويطعمون ماشيتهم .

فان حبس عنهم أجدبوا ، ولذا سموه غيثا ، وسموه رحمة وحيا ، وعرفوا الرياح الممطرة والعقيمة ، وعرفوا أوصاف الغمام الممطر والجهام ، ووضعوا للمطر أسماء دالة على مقدار مائه ، كالوابل والرذاذ ، وسموا السنة التي يشح مطرها أو ينقطع « شهباء » .

ولكن المطر ينزل غزيرا في بعض البقاع ، فيجري في الأودية ، فتفيض كأنها أنهار ، ثم يترك بها غدرانا ورياضا وقيعانا وأحساء وعيونا (٢)

وهذه الأودية كثيرة ، منها وادي حنيفة ، ووادي الرمة ، ووادي موزع ، ووادي زبيد ، ووادي نخلة ، وعشرات غيرها ذكرها الهمداني (٣) .

ويظهر أن بعض هذه الأودية خدع « ديودور الصقلي » في القرن الأول قبل الميلاد ، فذكر أن في بلاد العرب أنهارا كثيرة ، أتاحت لسكانها أن يزرعوا في العام الواحد زرعتين (٤) .

ويفهم من وصفه ومن وصف « استرابون » لنجد أنها هضبة وجبال تغطيها السحب في أكثر الأيام ، وتسقط الثلوج عليها أحيانا ، وتهب عليها الرياح الموسمية التي تلطف حدة الحر (٥) .

وقد ذكر عرام السلمي أسماء كثير من القرى الزراعية وأنواع فاكهتها وثمارها ، وذكر كثرة مياهها ، كقوله عن غدير « خم » انه لا يفارقه ماء أبدا من ماء المطر ، وقوله أن بعض الجبال فيها عيون ماء من المطر فلا تنقطع مياهها لكثرة ما يتجمع فيها (٦) .

ولا يصح أن يرتاب أحد في صدق هذا كله ، لما يلي :

- ما زالت الأمطار تتساقط أحيانا على بعض بقاع في الجزيرة ، ومن هذه البقاع مساحات واسعة في نجد ، ولقد شاهدت فيها شتاء غزير المطر سنة ١٩٥٧ – ١٩٥٨ غزارة لم أشهد مثلها في مصر ، اذ كانت السماء تتلبد بالسحب المتراكمة أياما متوالية ، وكان المطر ينهمر في قوة وتتابع ساعات متلاحقة ، فيصنع بحيرات فساحا في البطاح ، وكان السيل يتدفق أحيانا في وادي حنيفة كالنهر الزاخر ، وكثيرا ما كانت مياه المطر تتراكم في الشوارع والطرق المرصوفة ، ثم تعلو حتى تفيض من الحافتين ، واذا خاضت فيها السيارات غطى الماء عجلاتها الى أنصافها أو أعلى .
- احتفاء شعراء العصر الجاهلي بوصف السحب والمطر والسيل والبرق والرعد ، وهم الذين صوروا الحياة العربية كلها أدق تصوير وأصدقه .
- بقاء بعض الأودية والمسايل الى اليوم .
- غنى اللغة العربية بالكلمات الكثيرة الدالة على المطر والسحاب والسيل وأوصافها وما يتصل بها .

فاذا أخذنا المطر مجالا نطبق عليه تأثير البيئة وجدنا الشعراء قد فرحوا به ، وهشوا له ، وتشوقوا اليه ، فوصفوه ، وافتنوا في وصفه ، وفي وصف ما يتصل به من سحاب وبرق ورعد وسيل .

فهذا أوس بن حجر يبيت يرقب البرق المتلألىء في سحاب كثيف يملأ الآفاق ، ويكاد يطبق على الأرض ، حتى ليخيل اليه أن يده تناله ، فلما نزل ماؤه شمل الأرض كلها ، وأصاب ما عليها ومن عليها ، سواء من كان في مرتفع ومن كان في منخفض ، وسواء من اختبأ في كن ، ومن برز في العراء .

وكأن السحاب الداكن وقد كسا جبل « شطب » ، والبرق يلمع في خلاله ، فرس محجل سبق الخيل وتكشف منها .

وقد رعد السحاب ، ثم تحركت أدانيه ، فانشقت بالماء الذي لم تطق حمله ، وكأن السحاب طبقات تشبه كل طبقة ملاءة منشورة ، وكأن البرق الذي يتلألأ في وسطه ضوء مصباح ، والرعد يقصف فيخيل لسامعه أن بين السحب نوقا مسنة غزيرة اللبن تحن الى فصلانها حنينا فيه غلظ الصوت وقوته وخشونته ، لتسمع أولادها الراعية معها في مكان فسيح .

وهذا السحاب ساقته ريح الجنوب ، وتراكم بعضه الى بعض ، فتكاثف ليسح الماء سحا ، ويصبه صبا ، فلما جاد الأرض أخصبت رياضها وقيعانها ، واهتزت وربت ، سواء التي أصابها الرذاذ والطل ، والتي أصابها الوابل :

يا من لبرق أبيت الليل أرقبه
في عارض كبياض الصبح لمّاح
دان مسف فويق الأرض هيدبه
يكاد يدفعه من قام بالراح
فمن بنجوته كمن بمحفله
والمستكن كمن يمشي بقرواح
كأن ريقه لما علا شطبا
أقراب أبلق ينفي الخيل رمّاح
فالتجّ أعلاه ثم ارتجّ أسفله
وضاق ذرعا بحمل الماء منصاح
كأنما بين أعلاه وأسفله
ريط منشرة أو ضوء مصباح

---

٢) الغدران : جمع غدير ، وهو بركة مستطيلة منحدرة السطح يملؤها الماء الذي يجري ثم يأسن . الرياض : جمع روضة ، وهي مجتمع الماء في أرض منخفضة تنبت بها ضروب من البقل والعشب ، فاذا كثر عشب الروضة والتف فهي حديقة . القيعان : جمع قاع ، وهو الأض الواسعة المستوية يستقر بها الماء أحيانا عقب المطر . الأحساء : جمع حسى ، وهو حفرة ينكشف رملها عن ماء تسرب فيه الى طبقة تمسكه . العيون : جمع عين ، وهي البئر التي يسيل منها الماء . ٣) صفة جزيرة العرب ، للهمداني . ٤) تاريخ العرب ، لفيليب حتي . ٥) تاريخ العرب قبل الاسلام ، لجواد علي . ٦) أسماء جبال تهامة وسكانها .

كأن فيـــه عشارا جلّـــةً شرفـــا
شعثا لهاميم قـــد همّت بارشـــاح
بحّا حناجرهـــا هدلا مشافرهـــا
تسيم أولادهـــا فـــي قرقـــر ضاح
هبت جنوب بأولاه ومـــال بـــه
أعجاز مـــزن يسحّ المـــاء دلاّح
فأصبح الروض والقيعان ممرعـــة
ما بين مرتتق منها ومُنصاح(٧)

ونجد مثل هذا الوصف في شعر خفاف بن ندبة وعدي بن زيد العبادي وأبي دؤاد الايادي وزهير ابن أبي سلمى وأبي ذؤيب الهذلي وعبد بني الحسحاس والأعشى وامرىء القيس والحارث ابن عباد وتأبط شرا والمسيب بن علس وعبيد ابن الأبرص وطرفة بن العبد والخرنق أخت طرفة .

ونلاحظ أن كثيرا من هؤلاء الشعراء توافقوا على وصف المطر بالغزارة والاستمرار زمناً طويلا ، والهطول على مساحات متباعدة الأطراف .

على أنهم عنوا بما يعقب المطر من آثار :

• فتحدثوا عن صفاء الجو ، كقول امرىء القيس أن الطيور فرحت ونشطت وغردت وشقشقت وجعلت تطير ها هنا وها هنا ، وتثب من مكان الى مكان ، كأنها شربت خمرا مفلفلة :

كأن مكاكـيّ الجـواء غديّـــة
صبحن سلافا من رحيق مفلفـــل

• وتحدثوا عن العطر الذي يعبق به الجو بعد نزول المطر ، كقول الصمة بن عبد الله :

ألا يـــا حبـــذا نفحات نجـــد
وريـــا روضه بعـــد القطـــار

• ووصفوا الخصب الذي يعقب المطر واكتساء الأرض بزينة من الخضرة ، كقول أوس بن حجر :

فـأصبح الروض والقيعان ممرعـــة
ما بـــين مرتتق منهـــا ومنصـــاح

• ووصفوا آثار السيل ، فقد صوره امرؤ القيس جارفا أغرق السباع ، فبدت أطرافها فوق الماء كجذور البصل البري .

كأن السباع فيـــه غرقـــى عشية
بأرجائـــه القصوى أنابيش عنصل

وصوره طرفة بن العبد وخفاف بن ندبـــة قد ملأ أحجار الضباب فحبسها فيها ، فماتت ، وطفت فوق الماء مع الزبد ، وزاد خفاف بن ندبة أنه وصل الى وكر العقاب في أعلى الجبل أو التل .

• وتنبهوا الى آثار المطر والسيل في تحريك الصخور ، وفي محو الأطلال ، وطمس معالمها ، كقول عبيد بن الأبرص :

يـــا دار هند عفاهـــا كل هطّال
بالخبت مثل سحيق اليمنة البالـــي

وقول زهير بن أبي سلمى :

قف بالديـــار التي لم يعفها القـــدم
بلى وغيّـــرها الأرواح والدّيـــم

وهم الى هذا كله افتنوا في تصوير السحب والبرق والرعد :

• فهذا خفاف بن ندبة يتخيل أن السحب البيض لها أجنحة مثل النعام المعلق في الفضاء :

يجر بأكناف البحار الى المـــلا
ربابـــا لـــه مثل النعام المعلـــق

ويتخيلها أوس بن حجر ملاءات منشورة في الفضاء.

أما البرق فقد تخيله أمرؤ القيس مصباح راهب يضيء في الظلام ، وهذا خيال موفق ، لأن البرق يومض في ظلمات الليل وظلمات السحب ، كما يومض المصباح المعلق في الصومعة من بعيد في ظلام الليل والريح تهزه ، فيبدو ضوؤه تارة ويختفي تارة ، ولكنه لم يوفق في تشبيهه بلمع اليد في الظلام ، لأن اليد البيضاء مهما تبلغ لمعتها فليست بشيء بالنسبة الى وميض البرق :

أصاح تـــرى برقا أريك وميضه
كلمح اليديـــن فـــي حبي مكلل
يضيء سناه أو مصابيـــح راهـــب
أمـــال السّليط بالذبـــال المفتّل

أما عدي بن زيد فقد تخيل البرق سيوفا تلمع في الظلام :

تلـــوح المشرفيـــة فـــي ذراه
ويجلـــو صفح دخـدار قشيب(٨)

وتخيله الأعشى شعلا :

بل هل ترى عارضا قد بت أرقبه
كأنما البرق في حافاتـــه شعل

واذا كان أوس بن حجر قد تخيل الرعد حنين نوق مسنة ضخام فان النابغة الذبياني تخيله رحي تدور وتقعقع .

ثم انهم استمدوا من المطر والسحاب والبرد والبرق والرعد أخيلة شتى ، نجتزيء منها بهذه الأمثلة :

• شبهوا بقوة السيل وانحداره ودفعه ما يعترض طريقه ، كوصف امرىء القيس حصانه وتشبيه مقدرته على الكر والفر والاسراع في الاقبال والادبار بصخرة قوية جرفها السيل من أعلى الى أسفل :

مكر مفر مقبل مدبـــر معـــا
كجلمود صخر حطـه السيل من علِ

• وشبهوا الكثرة والتلاحق والاســراع بالمطر المنسكب ، كقول الحارث ابن عباد :

يا ويل أمكم من جمع سادتنـــا
كتائبا كالربـــا والقطر ينسكب

• وشبهوا الكريم بالسحاب الممطر ، كقول زهير في مدح حصين ابن حذيفة :

وأبيـض فيـاض يـــداه غمامـــة
على معتفيه مـــا تغب نواضلـــه

• وشبهوا الأسنان البيض المستويـــة بالبرد ، كقول عمرو بن معد يكرب :

اذا يضحكن أو يبسمن يومـــا
ترى بـــردا ألح بـــه الصقيع

وهكذا يستبين أثر البيئة في كل غرض من أغراض الشعر ، وتبدو مظاهرها في الأساليب والأخيلة والأفكار ■

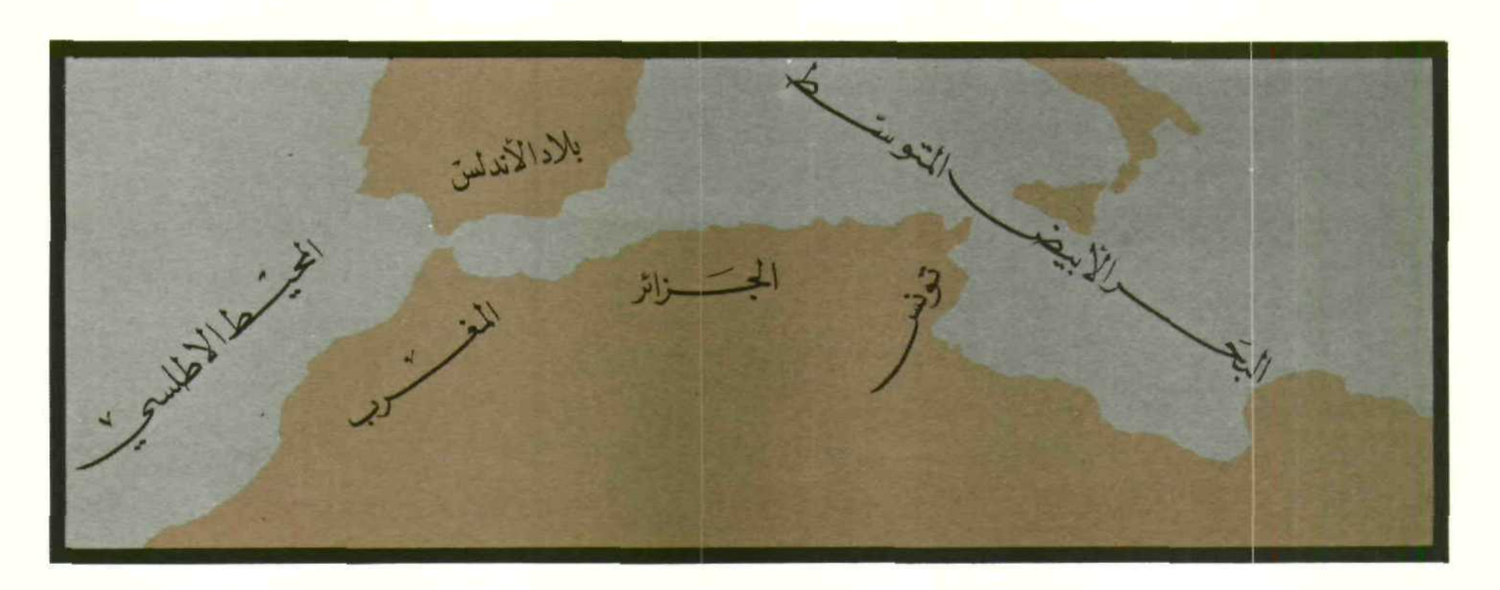
---

٧) عارض : سحاب معترض في الأفق . لماح : لماع . مسف ، شديد الدنو . هيدبه : ما تدلى منه . النجوة : المرتفع من الأرض . المحفل : مستقر الماء . القرواح : الأرض الظاهرة المستوية . الريق : الأوائل . شطب : اسم جبل . أقراب : جمع قرب وهو الخاصرة . أبلق : فرس محجل الى فخذيه . ينفي الخيل : يسبقها . التج : صوت . ارتج : تحرك . منصاح : بكسر الميم منشق بالماء . الريط : جمع ريطة وهي الملاءة . عشار جلة : نوق مسنة . شرف : جمع شارف وهي الهرمة . شعث : متلبدة الوبر . لهاميم : غزيرة اللبن . همت بارشاح : اشتد فصيلها وقوي فصارت حنانة . تسيم : ترعى أولادها . قرقر : أرض مطمئنة لينة . ضاح : بارز . دلاح : كثير الماء وهو نعت للحزن . ممرعة : مخصبة . مرتتق : أصابه مطر قليل . منصاح : بضم الميم أصابه وابل .

٨) دخدار : فارسية معربة هي الثوب المصون .

انتشار الاسلام في الشمال الافريقي

بقلم الدكتور محمود زايد



ان تعريب شمال افريقية ، واشراق شمس الاسلام على ربوعه وغرس بذور الثقافة الاسلامية في نفوس سكانه وأهليه لمن أعظم الانتصارات التي حققتها موجة الفتح الاسلامي العربي الكبرى التي انطلقت من الجزيرة العربية عقب وفاة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . ففي خلال ما يقرب من ألفي سنة قبل الفتح الاسلامي ، تعرض شمال افريقية لتأثيرات حضارية مختلفة خلال حكم الفينيقيين والرومان والفندال والبيزنطيين ، لكن أيا من هذه الأمم لم تستطع أن تثبت أقدامها في هذه الديار ، ولا أن تسبغ عليها طابعا حضاريا باقيا . أما الفاتحون المسلمون العرب فقد حالفهم التوفيق كله في اضفاء الطابع الاسلامي العربي على البلاد وأهلها . ولا يزال توفيقهم هذا مبعث دهشة المؤرخين الغربيين ومثار اعجابهم . ويقول « جوتيه — Goethe » في هذا الصدد :

« لا زالت النتائج التي وصل اليها العرب (في فتحهم الشمال الافريقي) تدهشنا الى الآن . لقد عرب المغرب الى حد كبير ، وتحول الى الاسلام تحولا تاما عميقا ، وهذه نتيجة تدعو الى الاعجاب ما في ذلك شك . ولنكرر القول أن هذا الفتح أحدث خلال القرن السابع ثورة كبرى : لقد انهار الحاجز المغلق اغلاقا محكما من كل ناحية ، ذلك الحاجز الذي كان يفصل الشرق عن الغرب » .

على أنه مما يستلفت النظر حقا أن هذا الانجاز المذهل لم يظفر الى الآن الا بدراسات قليلة لا تشفي غليل الباحث . فأكثر الكتاب والمؤرخين المعنيين بدراسة شمال افريقية يقبلون على تاريخه السياسي لا على تلك العملية الحضارية الكبرى التي جعلت منه جزءا لا يتجزأ من العالمين الاسلامي والعربي . ويمكن ردّ هذا الى سهولة تتبع الفتح اذا ما قورن بصعوبة تتبع انتشار الاسلام وغلبة اللغة اللذين تما في فترة زمنية تطول فترة الفتح بكثير ، وانطويا على مشكلات تتطلب ممن يتصدى لها مؤهــلات خاصة دينية ولغوية وغيرها .

ولعل أول ما ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار عند البحث في انتشار الاسلام في شمال افريقية وفي غيره من البلدان هو أن طبيعة الاسلام نفسه — دينا وثقافة شاملة — تتصف بقدرة كبيرة على اجتذاب غير المسلمين اليه ، وبخاصة الوثنيين ، وتحويلهم الى مؤمنين بالله واليوم الآخر ، فضلا عن تحويلهم الى مجاهدين في سبيل الله ، يبتغون مرضاته بنشر دينه ، والاستماتة في سبيل الذود عنه . ويعلق الأستاذ « جب » على هذه الظاهرة في الاسلام بقوله :

« هناك ظاهرة خاصة صحبت الاسلام ، وهي قوة الثقافة الاسلامية الفتية على اضعاف ذكرى الثقافات الموروثة ، بل على محوها في بعض الأحيان من نفوس معتنقيه واحلال تاريخ الاسلام وتقاليد الثقافة الاسلامية محلها . كاد الناس في كل الأقطار ينسون ما كان لهم من ماض قبل الاسلام — نسي المصريون فراعنتهم وبطالستهم ، ونسي الأتراك خاقاناتهم وهلم جرا ، ورجعوا الى بلاد العرب والخلفاء المسلمين الأولين يتخذون منهم أسلافا روحيين . »

ولاريب في أن « جب » أصاب كبد الحقيقة . ففي تجارب العرب خلال تاريخهم الحديث ما يؤيده . فقد سبق لعدد من مفكري مصر ، وبخاصة في العقد الثالث من هذا القرن ، أن اعتقدوا بأنه من الممكن

بناء النهضة العربية الاسلامية على أسس غربية ، وجاهر الدكتور هيكل ، وعدد غيره ، بتمجيد الفرعونية والتغني بالحضارة الغربية . على أنه لم يلبث أن أدرك أن البناء على غير الاسلام باطل لن يقدر له النجاح . وكتب يقول :

« وقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لتتخذها جميعا هدى ونبراسا ، لكنني أدركت بعد لأي أنني أضع البذر في غير منبته ، فاذا الأرض تهضمه ، ثم لا تتمخض عنه ، ولا تبعث الحياة فيه . وانقلبت التمس في تاريخنا البعيد في عهد الفراعنة موئلا لوحي هذا العصر ينشيء فيه نشأة جديدة . فاذا الزمن ، واذا الركود العقلي قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذرا لنهضة جديدة . فرأيت أن تاريخنا الاسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر ، ففيه حياة تحرك النفوس ، وتجعلها تهتز وتربو ، ولأبناء هذا الجيل في الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين . »

على أن هناك عوامل عدة أخرى كان لها أعظم الأثر في انتصار الاسلام . وأول هذه أن المسيحية التي كانت قد دخلت الشمال الافريقي في القرن الثاني الميلادي لم تستطع خلال القرون المتعاقبة التي سبقت الفتح الاسلامي أن تمد جذورا راسخة بين البربر ، ووجد الفاتحون المسلمون الأوائل أمر المسيحية قد تدهور على نحو لا ينفع معه علاج . ولا أساس لما يذهب اليه البعض من أن ذلك التدهـور جاء نتيجة لاضطهاد المسلمين للمسيحيين . ويعلق على هذا « دوايت بيكر » في بحث له عن اختفاء الكنيسة المسيحية في شمال افريقية بقوله :

« وبعض الاجابات عن التساؤل عن اختفاء الكنيسة المسيحية غير دقيقة . وأبسطها ، وربما أقدمها ، هو الاعتقاد بأن المسلمين أكرهوا المسيحيين على اعتناق الاسلام بحد السيف ، ولكن ليس هناك أساس يذكر لهذا الزعم الشائع . فالمسلمون لم يقفوا عند حد السماح للمسيحيين بالتمسك بديانتهم ، بل كانوا في الغالب يشجعونهم على ذلك . »

لقد كان العامل الرئيسي في تدهور الكنيسة المسيحية في شمال افريقية هو الخلافات المذهبية ، واضطهاد الحكام لأصحاب المذاهب المخالفة للمذهب الرسمي . وكانت المسيحية قد دخلت شمال افريقية في القرن الثاني الميلادي خلال حكم الرومان ، ونجح الرهبان والمبشرون خلال القرنين التاليين في كسب أتباع كثيرين . لكن الدولة كانت أحيانا تضطهدهم لمخالفتهم عبادة الأباطرة . ثم نشب خلاف مذهبي في صفوف المسيحيين ، تزعم أسقف قرطاجنة بعضهم ، وتزعم الأسقف « دوناتوس » البعض الآخر . وانضم كثيرون من البربر الى مذهب « دوناتوس » ، واعتبروه رمزا لمقاومة الرومان . وجاء البلاء الكبير عندما انتزع البرابرة الوندال من أتباع « آريوس » افريقية من الرومان في القرن الخامس الميلادي ، فاضطهدوا جميع من سواهم من المسيحيين . ويذهب الأستاذ « توماس آرنولد » الى أن الوندال أنزلوا بالكنيسة المسيحية ضربة لم تفق منها أبدا . ولما سحق البيزنطيون (الروم) الونـدال بقيادة « بليساريوس » سعوا الى رأب الصدع في صفوف المسيحيين ، لكنهم لم ينجحوا في ذلك . وعادت الخلافات المذهبية تدق مسامير أخرى في نعش المسيحية ، حتى اذا كان الفتح الاسلامي ، وجد المسلمون المسيحيين قد تناقصوا الى حد كبير .

على أنه مما لا شك فيه ان صعوبة ترجمة النصوص المسيحية المقدسة الى لغة المواطنين لعبت دورا كبيرا في عجز المسيحية عن ارساء جذورها في لغة المواطنين ومشاعرهم ، وباقي نواحي ثقافتهم . والاقتصار على الترجمة الى المواطنين لا يغني شيئا عن جعل الديانة المسيحية جزءا من تراث أهل البلاد ، يفهمونها بلغتهم ، وينقلونها بها الى غيرهم . ولعل هذا هو الفارق الكبير بين مصير المسيحية في شمال افريقية ومصيرها في الشرق الأدنى العربي حيث نقلت نصوصها الى لغة أهل البلاد . وقد يكون هذا هو السبب في ان الكنيسة القبطية لا تزال قائمة ، وان الكنيسة الأرمنية بقيت كذلك .

لكن حماسة المسلمين لنشر ديانتهم لعبت دورا كبيرا في انتصار الاسلام في شمال افريقية . واتبع المسلمون عدة سبل لتحقيق هذا الغرض . فنراهم منذ ابتداء فتوحهم يتيحون الفرصة لأبناء البربر وبناتهم في (برقة) في الانضمام اليهم ، الأمر الذي كان يتم بعلم من أولياء أمورهم وبرضاهم .

ويذهب أحد مؤرخي المغرب الى أن اجتذاب المسلمين لأبناء البربر الى صفوفهم كان يحقق ثلاثة أهداف رئيسية :

« أولها ديني بتنشئتهم على العقيدة الاسلامية ، ونشر الدين عمل من أعمال البر والتقوى ، وثانيها اجتماعي بتعريبهم عن طريق اللغة العربية ، وتربيتهم على العادات والتقاليد العربية ، ثم التزاوج معهم ، ونشر العروبة كان رسالة العرب ، وثالثها سياسي ، وهو نتيجة طبيعية لسابقيه ، بتوثيق أواصر الصلة بين العرب والبربر ، وفي ذلك توحيد وتقوية لدولة العرب » .

وكان العرب يلجأون أحيانا الى أخذ رهائن من البربر يكونون ضمانا لحسن سلوكهم من ناحية ، ويحققون من ناحية أخرى غرضين : الأول العمل على نشر الاسلام بينهم ، والثاني قتالهم الى جانب المسلمين . فعندما قتل حسان بن النعمان الكاهنة زعيمة البربر وأذعن أتباعها للمسلمين ، أبى حسان أن يقبل منهم ذلك حتى يعطوا له اثني عشر ألف فارس رهائن يجاهدون مع العرب حيث جاهدوا ، ويقاتلون من كفر من البربر والروم . فأجابوه لذلك وأسلموا على يديه . وولى حسان ولدي الكاهنة « يفرن » و « يزديان » كل واحد منهما على ستة آلاف ، وترك معهما ثلاثة عشر رجلا من علماء التابعين يعلمونهما القرآن وشرائع الدين . ويذكر « ابن عذارى » صاحب كتاب « البيان المغرب » ان موسى بن نصير عين سبعة عشر رجلا من العرب لتعليم الرهائن من البربر القرآن الكريم وشرائع الاسلام .

ولا ضرورة للمبالغة في أهمية خطوتين خطاهما العرب في سبيل كسب البربر الى صفوفهم . أما الخطوة الأولى فهي المساواة بين العرب والبربر المحاربين في قسم الفيء . ويبدو ان الذي فرض هذه المساواة من جملة ما فرضه من تراتيب ادارية ، هو حسان بن النعمان (٧٣ — ٨٥هـ) . ودل بذلك على تبصر بالأمور وبعد نظر . فبهذا لم يجتذب البربر الى الاسلام والى صفوف المحاربين فحسب ، وانما كذلك جنب شمال افريقية كثيرا من المتاعب التي أثارها الموالي في المشرق ، واستغلها الطامعون في الثورة على الدولة ، ومن أبرزهم المختار بن أبي عبيد الثقفي في الكوفة . أما الخطوة الأخرى فهي تعيين بعض البربر في مناصب عالية في الادارة ، وقد ابتدأها الوالي أبو المهاجر دينار (٥٥ — ٦٢هـ) وسار عليها خلفاؤه من بعده . فكان حسان بن النعمان عندما يخرج من القيروان ينيب عنه مولاه أبا صالح . ويذكر « ابن عبد الحكم » صاحب كتاب « فتوح مصر وأخبارها » ، انه كان على برقة مولى لعبد العزيز بن مروان اسمه « تليد » ، وكان على مقدمة جيش حسان أحد زعماء قبيلة « لواتة » ، وهم من البربر .

وسهّل تقارب العرب والبربر وتمازجهم ما اجتمع لهما من صفات البداوة والفطرة والنشاط وحب القتال وتنظيمهم الاجتماعي . ولا بد وأن مآتي العرب الفاتحين ملأت البربر بالاعجاب بهم وحفزتهم على الانضمام الى صفوفهم . ولا عجب اذن أن نرى البربر يسهمون اسهاما كبيرا في الفتوح الاسلامية في الغرب . فالجيش الذي أرسله موسى بن نصير الى الأندلس كان معظمه من البربر ، كما ان موسى بن نصير عهد بمهمة قيادته الى طارق بن زياد ، متخطيا بذلك عددا من كبار قادة العرب مثل « زرعة بن أبي مدرك » ، و « عياش بن أخيل » ، و « المغيرة بن أبي بردة » ، وغيرهم .

وكان لظهور دول شمالية افريقية تحت لواء الاسلام دور بارز حاسم في اجتذاب قبائل كثيرة الى الاسلام ، لا في الشمال الافريقي فحسب ، بل وبين الزنوج في الجنوب . ونخص بالذكر هنا دولتي المرابطين والموحدين ، وكلاهما امتدت سيطرتهما الى الأندلس أيضا . استهدفت كل من الدولتين الاصلاح الديني والسياسي والاجتماعي ، وتمكنت بالفعل من اجتذاب قبائل البربر المتوغلة في الداخل . وهبّ كلاهما لنجدة المسلمين في الأندلس خلال عهد ملوك الطوائف . وقام « ابن تومرت » ، مؤسس دولة الموحدين ، بتقريب عقيدة جماعته في التوحيد من عامة البربر بما ألفه من كتب بلغة البربر شرح فيها قواعد الاسلام . وقد استطاعت دولة الموحدين أن تبني دولة كبرى توحد فيها الشمال الافريقي كله حتى تخوم مصر ، هذا بالاضافة الى الأندلس . ومما يستلفت النظر هنا أن كلا من هاتين الدولتين لم تهدف الى اعادة مجد ضائع للبربر ، وانما الى اقامة دولة تحيي السنة الاسلامية .

وكان انشاء الحواضر الاسلامية في مختلف الأقطار عاملا مهما جدا في تثبيت أقدام الفاتحين الأول ، وتنظيم الفتح ، واشراق نور الاسلام على مختلف النواحي المجاورة ، ونشر اللغة العربية بين أهلها . وكان « عقبة بن نافع » هو الذي استهل سلسلة المدن الكبرى في الشمال الافريقي . فبتأسيسه لمدينة القيروان في تونس ، في أوائل الفتح ، أظهر الولاية الافريقية الاسلامية ، وهيأ للمسلمين قاعدة ينطلقون منها في فتوحاتهم ، ومركزا حضاريا ينشرون فيه ومنه دينهم ولغتهم . ويقول ياقوت الحموي صاحب « معجم البلدان » في هذا الصدد :

« وسار عقبة الى افريقية ونازل مدنها ، فافتتحها عنوة ، ووضع السيف في أهلها ، وأسلم على يده خلق من البربر وفشا فيهم دين الله ، حتى اتصل ببلاد السودان ، فجمع عقبة حينئذ أصحابه وقال : ان أهل هذه البلاد اذا عضهم السيف أسلموا ، واذا رجع المسلمون عنهم عادوا الى عادتهم ودينهم ، ولست أرى نزول المسلمين بين أظهرهم رأيا . وقد رأيت أن أبني ههنا مدينة يسكنها المسلمون ، فاستصوبوا رأيه ... »

وقام حسان بن النعمان (٨٤هـ) بانشاء المدينة الثانية في الشمال الافريقي وهي تونس ، لتكون محرسا للبحر ، وميناء جديدا للبلاد يقوم مقام قرطاجنة التي كانت ثغر ولاية افريقية البيزنطية . وقد قدر لتونس أن تلعب دورا خطيرا في تاريخ البحر الأبيض المتوسط ، لأنها ، كما يقول الدكتور حسين مؤنس ، « كانت النافذة التي أطل منها عرب المغرب على غربي هذا البحر ، والباب الذي خرجوا منه الى « صقلية » و « سردينية » و « ايطاليا » ، ليلعبوا دورهم الخطير في هذه النواحي » وفي القرن الثاني الهجري ، أسست مدينتان أخريان كان لهما تأثير حضاري كبير وهما « تاهرت » في المغرب الأوسط ، و « فاس » في المغرب الأقصى . وفي رحاب فاس ، ومن بعدها مراكش ، نشأت المدارس والجامعات ، والتقى علماء الأندلس بعلماء المغرب الأقصى ، وتمازجت الثقافتان الاسلاميتان الأندلسية والافريقية ، وحملت الثانية من الأولى سمات باقية تجلت في عمارتها وأدبها وفكرها .

ومع أن المسلمين في شمال افريقيا لم يتوانوا عن نشر الاسلام ، فقد شهدت الدعوة الى الاسلام موجة قوية في القرن السادس عشر . وكان الباعث الأكبر في انطلاق هذه الموجة هو ما حل بالمسلمين في اسبانيا من اضطهاد على يد الاسبان . وانطلق الدعاة جماعات جماعات الى الأماكن الجبلية النائية ، تضرب أمثالا في الورع لأهل البلاد . ويقول في هذا الأستاذ « آرنولد » :

« وانطلق الدعاة جماعات ، كل جماعة تتألف من خمسة أو ستة الى وجهات مختلفة في وقت واحد .. وسرعان ما أثار تقشفهم وطول تعبدهم فضول القبائل الذين أخذوا بعد وقت وجيز يبادلونهم الصداقة والود . وتمكن الدعاة شيئا فشيئا من الظفر بما أرادوا عن طريق ما عرفوه من الطب والصناعات الآلية وبعض مزايا أخرى من الحضارة ، وأصبحت كل صومعة مركزا من مراكز التعليم الاسلامي ، واجتمع حولهم طلاب للعلم . وأصبح هؤلاء الطلاب بعد فترة من الزمن دعاة الى الاسلام بين قومهم ، حتى استطاعوا أن ينشروا دينهم في كافة أنحاء البلاد التي تسكنها القبائل ، والقرى التي تقع في صحراء الجزائر . »

على أنه كان لهجرة القبائل العربية الى بلدان شمال افريقيا واستيطانها في البلاد ، وبخاصة على السواحل ، تأثير كبير في تعريب البلاد ، وبالتالي في نشر الاسلام في ربوعها . ونخص بالذكر من هذه الهجرات هجرة بني هلال وبني سليم في القرن الحادي عشر أثناء خلافة المستنصر الفاطمي . وكان هذا الخليفة قد نقم على الدولة الزيرية ، فلم يجد وسيلة للانتقام أفضل من اطلاق عرب بني هلال وبني سليم ليجتاحوا ليبيا وتونس . وكان هؤلاء يعيثون فسادا في مصر شرقي النيل ، فأراد الخليفة أن يصيب عصفورين بحجر .. فبدفعهم الى اجتياز النيل يرتاح من شغبهم ، وفي الوقت ذاته يجتاحون ملك خصمه . واتخذ المستنصر هذه الخطوة بناء على نصيحة الوزير اليازوري الذي قال له :

« فان صدقت المخيلة في ظفرهم (أي العرب) بالمعز وصنهاجة (خصومه) كانوا أولياء للدعوة ، وعمالا بتلك القاصية ، وارتفع عدوانهم من ساحة الخلافة ، وان كانت الأخرى فلها ما بعدها ، وأمر العرب البادية أسهل من صنهاجة الملوك . »

بيد أن المستنصر ، وان حقق بعض غرضه الأول ، أي النّيل من الزيريين ، فانه لم يستطع استعادة ولاء البلاد للخلافة الفاطمية ، ولا مواصلة الدعوة الفاطمية . وكان الأثر البعيد لسياسته شيئا لم يدخل في حسبانه ، وهو أن هؤلاء العرب رسخوا قواعد حركة التعريب في المناطق التي اجتاحوها سواء من حيث اللغة أو العادات أو الانتساب الى أرومة عربية ، وهكذا كان في الشر خير كثير . قال ابن خلدون عند الحديث عن « هوارة » الذين تبدوا مع بني سليم :

« صاروا في عداد الناجعة عرب بني سليم في اللغة والزي وسكنى الخيام وركوب الخيل وكسب الابل وممارسة الحروب ، وايلاف الرحلتين في الشتاء والصيف ، في تلولهم ، قد نسوا رطانة البربر ، واستبدلوا منها بفصاحة العرب ، فلا يكاد يفرق بينهم . »

وهكذا ، وبعد أقل من أربعمائة سنة من الفتح الاسلامي لشمال افريقيا ، رسخت جذور الاسلام في البلاد ، مع أن الديانات الأخرى سلخت من حياتها آلاف السنين في خلع صبغتها على المنطقة ، ولم تفلح ■

جامعة الملك عبد العزيز الأهلية في جدّة

« هذه الجامعة هدفها نقل التراث الإنساني إلى الأجيال الصاعدة ، وتهيئة الشباب الجامعي وتأهيله علمياً من أجل الحياة العملية من جهة ، وللمساهمة في زيادة المعرفة الإنسانية عن طريق البحث العلمي من الجهة الأخرى ، وكذلك زيادة معرفة الشباب السعودي ببيئته وظروف تطورها ، ضمن إطار من تراثنا العربي والإسلامي . »

د . احمد علي
نائب رئيس الجامعة وعميد كلية الاقتصاد فيها



حلم يتحقق

كانت فكرة انشاء جامعة في المنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية حلما يداعب أذهان العديد من رجال الفكر والتربية في تلك المنطقة منذ أمد بعيد . وفي مستهل عام ١٣٨٤هـ قام نفر من أولئك بعرض الفكرة على جلالة الملك فيصل الذي باركها وأطلق عليها اسم والده المغفور له جلالة الملك عبد العزيز . كما ترأس جلالته افتتاح أعمال الهيئة التأسيسية للجامعة عند انعقادها ، وأشاد بجدوى تعاون المواطنين مع الدولة في مثل هذه المشروعات الخيرة .

وبعد أن أخذت التبرعات تنهال من المؤسسات والأفراد ، انبثقت عن الهيئة التأسيسية لجنة تنفيذية لتتولى اتخاذ الخطوات العملية لابراز المشروع الى حيز التحقيق ، وكان أول عمل قامت به هذه اللجنة أن وضعت الخطة المتكاملة للمشروع من النواحي العلمية والعملية والمالية عن طريق لجان متفرعة كونت لتحقيق هذه الأغراض . كما كان من أبرز أعمالها الرائدة ابتعاث عدد من الخريجين السعوديين الى الخارج للتخصص والحصول على درجات علمية عالية تؤهلهم للتدريس في الجامعة ، وحمل أعباء الادارة في مختلف الأقسام ، وقد أسهمت وزارة المعارف بابتعاث عدد آخر من الخريجين للغاية ذاتها . كما استدعت اللجنة التنفيذية هيئة علمية استشارية مؤلفة من كبار رجال التعليم في عدد من الجامعات العربية والاسلامية والغربية لوضع التخطيط الكامل للكيان الجامعي المقترح . وقد أوصت اللجنة المذكورة ، اثر دراسات مستفيضة وزيارات متعددة قامت بها لمختلف المؤسسات العلمية في المملكة ، بضرورة انشاء تلك الجامعة في مدينة جدة بالذات ، لتكون متممة لرسالة شقيقتيها في الرياض والظهران . كما أشادت بمساهمة القطاعين الخاص والعام في بناء هذا الصرح العلمي ، وهو أمر يهيىء لها فرصة ذهبية لأداء رسالتها الخاصة التي تستهدف من ورائها تهيئة الثقافة الجامعية الأصيلة ، واجراء البحوث العلمية ، وتنمية الموارد البشرية المؤهلة ، والاهتمام بتراث الفكر العربي والاسلامي ، والسعي الى تعزيز التبادل الثقافي وتوطيد علاقات التعاون بينها وبين غيرها من الجامعات . وكذلك كان من أبرز التوصيات التي تضمنها تقرير اللجنة الاستشارية اقتراح بانشاء « المجلس العلمي » للجامعة ، للنظر في الشؤون العلمية والتخطيطية ،



الحدائق الغناء والأشجار النضرة تساعد الطلاب على الترويح عن انفسهم وتدفعهم الى استذكار دروسهم في الهواء الطلق .

والبحث العلمي ، والامتحانات ، واختيار أعضاء هيئة التدريس ، وتطوير المختبرات الفنية والمكتبات الجامعية ووسائل الاعلام .

افتتاح الجامعة

لقد كان لتبرع المرحوم معالي الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية والاقتصاد الوطني الأسبق بعدد من المباني الكبيرة لمشروع الجامعة ، أثره الفعال في تسهيل افتتاح الجامعة ، بعد اجراء التعديلات الضرورية واتخاذ الاستعدادات العلمية اللازمة . وكانت اللجنة الاستشارية قد أوصت بوجوب البدء بـ « كلية الاقتصاد والادارة » نظرا لحاجة البلاد الملحة الى طائفة كبيرة من المختصين في علوم الاقتصاد والتجارة والمحاسبة وادارة الأعمال والادارة العامة . وقد استقبلت الجامعة في مطلع العام الدراسي ١٣٨٧ – ١٣٨٨ (١٩٦٧ – ١٩٦٨) ستين طالبا ممن حصلوا على الشهادة الثانوية العامة ، ليكونوا أول دفعة في السنة الاعدادية لكلية الاقتصاد والادارة . كما قبلت الجامعة في العام ذاته ثلاثين طالبة تقدمن للالتحاق في السنة الاعدادية بقسم الدراسات المسائية . ويشتمل البرنامج الدراسي للسنة الاعدادية على مواد ودروس في الثقافة الاسلامية واللغة العربية وآدابها واللغة الانجليزية والرياضيات والعلوم والتربية البدنية ومادة اضافية كالاجتماع أو مبادىء الاقتصاد أو مدخل العلوم الادارية والقانونية . ويستهدف هذا البرنامج تمكين الطلاب من العلوم الأساسية في اللغة الانجليزية قراءة وكتابة ومحادثة وانشاء .

الدراسة في الكليات

وفي العام الدراسي الذي تلاه ١٣٨٨ –١٣٨٩ باشرت كلية الاقتصاد والادارة مهام التدريس ، وهي تشمل أقسام الاقتصاد ، وادارة الأعمال ، والمحاسبة ، والتسويق ، والاعلان ، والادارة العامة ، والعلوم السياسية . وسيكون بامكان الطالب الذي ينهي البرامج الدراسية في هذه الكلية الحصول على شهادة البكالوريوس في أي فرع من الفروع الآنفة الذكر ، وذلك في مدى أربع سنوات تضاف الى السنة الاعدادية التي تسبق الدراسة الجامعية . وتنحصر الدراسة الحالية في أقسام الادارة العامة ، وادارة الأعمال ، والاقتصاد ، الى أن تستكمل بقية الأقسام . وفي مطلع العام الدراسي « ١٣٨٩/١٣٩٠ » افتتح قسم اللغة الانجليزية كأول قسم في كلية الآداب والعلوم الانسانية المزمع انشاؤها . وتشمل خطة السنوات العشر القادمة استكمال أقسام هاتين الكليتين وانشاء كليتي العلوم والنبات .

الدراسات المسائية

أما قسم الدراسات المسائيــة فقد انشىء استكمالا لرسالة الجامعة الثقافية والتربوية ، وتنظم فيه دراسات مسائية للطالبات اللواتي أنهين الدراسة الثانوية بنجاح وحصلن على الشهادة الثانوية العامة ، تمكينا لهن من متابعة الدراسة الجامعية . ويقوم بالتدريس فيه مدرسات تحت اشراف أساتذة الجامعة ، وطبقا للمنهاج الدراسي العام للجامعة نفسها . وتخصص للبنات أوقات للاستفادة من المكتبة ومختبري اللغة والعلوم . ومن المزمع انشاء « شبكة تلفزيون مقفلة » لتمكين الطالبات من متابعة المحاضرات التي يلقيها أعضاء هيئة التدريس .

الطلبة وهيئة التدريس

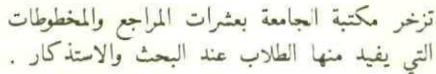
بلغ مجموع الملتحقـين بجامعة الملك عبد العزيز الأهليـة للعام الـدراسي الحالي (١٣٩٠ – ١٣٩١) (١٩٧٠ – ١٩٧١) ٣٠٨ طلاب و ١٧١ طالبة . أما الهيئة التدريسية فهي نخبة من حملـة الشهادات العالية وذوي الاختصاص والخبرة من السعوديين وغيرهم . وقد بلغ عدد أعضاء الهيئة التدريسية للعام الحالي ٣١ متفرغا و ٥ من غير المتفرغين . أما في قسم الدراسة المسائية للبنات فقد بلغ عدد المدرسات لهذا العام سبع مدرسات متفرغات و ١٥ من غير المتفرغات .

ويحق لكل طالب سعودي أنهى الدراسة الثانوية وحصل على الشهادة الثانوية العامة بنجاح أن يدخل الجامعة بعد أن يجتاز فحص المقابلة ، والكشف الطبي . ولا تقبل الجامعة الدراسة بالمراسلة أو الانتساب ، كما لا تتقاضى أية رسوم دراسية رغم اعتمادها على التبرعات والمساعدات المحدودة ، وهي فضلا عن ذلك تساعد الطلبة المحتاجين بمكافآت شهرية بين مائة ومائتي ريال . هذا وتتلقى الجامعة معونة سنوية من الدولة



جانب من معمل اللغة الانجليزية التابع لجامعة الملك عبد العزيز الأهلية ، وهو من الوسائل المهمة التي تعين الطلاب على اجادة اللفظ واتقان نطق مخـارج الكلمات الانجليزية .




تزخر مكتبة الجامعة بعشرات المراجع والمخطوطات التي يفيد منها الطلاب عند البحث والاستذكار .



سمك أبو قري « أبو جبة » من أنواع الأسماك العديدة التي تضمها جنبات مختبر التاريخ الطبيعي في جامعة الملك عبد العزيز الأهلية بجدة .

تقدر بمليون ونصف المليون من الريالات ، بالاضافة الى تبرعات ثابتة ومساعدات يقوم بها العديد من الأفراد والشركات والمؤسسات المحلية في البلاد . غير أن الدولة تقدم ، بالاضافة الى معونتها الثابتة ، عددا من المنح الدراسية للتخصص ، كما تقدم تسهيلات أدبية وفنية لا حصر لها عن طريق مختلف أجهزتها .

المرافق الجامعية

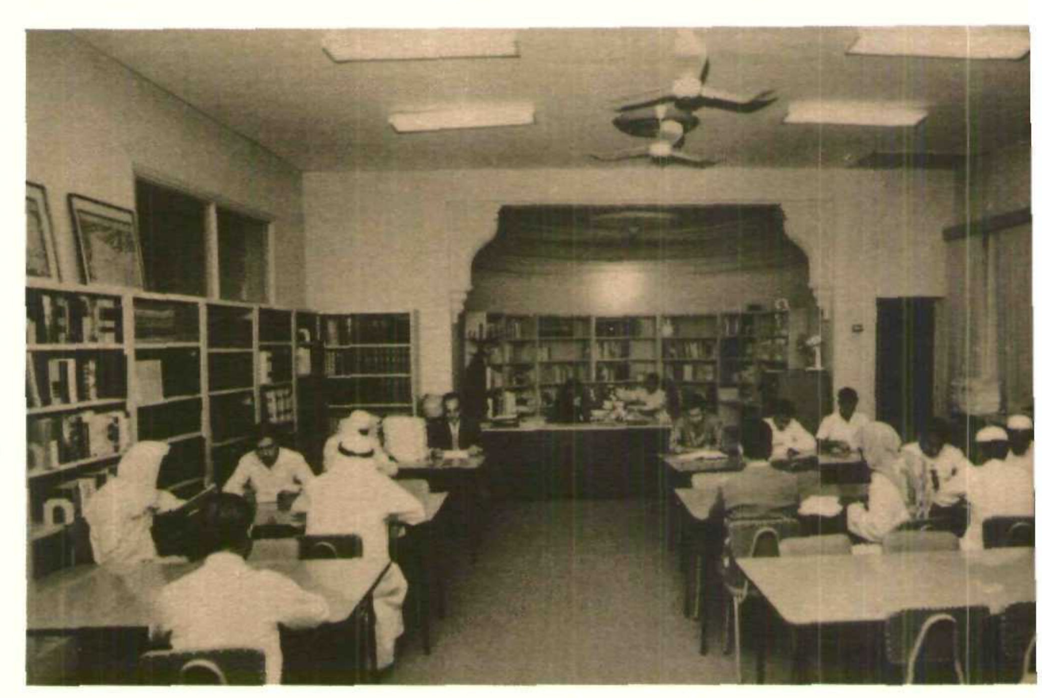
تتكون مرافق الجامعة من مباني منفصلة بعضها عن بعض ، منها مبنى يحوي كلية الاقتصاد والادارة ، وادارة قسم اللغة الانجليزية ، ومختبر اللغة الانجليزية ، ومختبر العلوم ، ومدرجا ، وصالة للمحاضرات . وأربعة فصول دراسية وغرفة اعداد معروضات متحف التاريخ الطبيعي . وبجانب هذا المبنى الرئيسي يوجد مبنى آخر أصغر حجما يحوي مكاتب ادارة الجامعة وقاعة الاجتماعات . ويجاور هذا المبنى نادي الكلية ، وبه قاعات لكرة الطاولة ، ومكتب مدير شؤون الطلاب ، والمقصف ، وقاعة اجتماعات اللجان الطلابية . والى مسافة غير بعيدة عن مبنى رابطة الطلاب يقوم بناء آخر يوازيه حجما ، ويحوي عددا من قاعات النوم لطلبة القسم الداخلي ، وعددا من المستودعات . وقد أحيطت هذه المباني بشجيرات وأزاهير تبعث في الجو عبيرا شذيا . وعلى الطرف الشمالي الشرقي يقوم بناء آخر ذو سطوح قرميدية خضر ، ويضم المكتبة بقاعاتها الثلاث وملحقاتها ، كما يضم مكاتب أعضاء هيئة التدريس ، والوحدة الصحية ، وبعض المدرجات والفصول الدراسية . وعلى مسيرة خطوات من المكتبة الرئيسية تقوم مرافق سكنية لطلاب السنة الاعدادية . والى الشرق من هذا البناء يجري العمل في انشاء مبنى آخر يتكلف بناؤه ما يقارب المليون ونصف المليون من الريالات ، ويتألف من ثلاثة أدوار تستوعب المكتبة المركزية حيث سيجري نقلها اليها ، و ٢٧ فصلا دراسيا وقاعة للمحاضرات تتسع لأربعمائة وخمسين شخصا ، بالاضافة الى عدد من المكاتب الخاصة بأعضاء الهيئة التدريسية تفي بحاجة الجامعة لبضع سنوات .

ويقول الأستاذ « درويش جستنية » مدير العلاقات العامة بالجامعة ومدرس الجغرافيا الاقتصادية : « انه بالنظر الى ظروف الجامعة المادية وحالة مبانيها ، فاننا نجد أنفسنا مضطرين الى استغلال كل شبر من المباني الحالية استغلالا تاما ، كما اننا نتوسع في الانشاء بقدر ما تسمح الامكانيات وتدعو اليه الضرورة الناشئة عن ازدياد عدد الطلاب ونمو الفصول الدراسية . ولذا فأنت لا ترى مباني خاصة بمختلف الأقسام في المرحلة الحالية ، لأن جميع هذه المباني تعتبر مؤقتة الى أن يتم اختيار الموقع النهائي الذي سيقوم عليه الحرم الجامعي المتكامل » .

وقبل أن نختتم حديثنا عن المباني لا بد من الاشارة الى حديقة البرتقال والليمون التي تحاذي البناء الشمالي الغربي من ناحية الغرب حيث غرست أشجار البرتقال والليمون واليوسفي ، في صفوف متباعدة متناسقة وتتدلى من غصونها قطوف البرتقال والليمون اليانعة ، وتغرد في جنباتها العصافير سعيدة فرحة .

مكتبة الجامعة

تولي الجامعة اهتماما بالغا بانشاء مكتبة مركزية مدعمة بالمراجع والمصادر والكتب الأساسية . أما عملية اختيار الكتب والمراجع فتتم بالتعاون بين جهاز المكتبة وأعضاء هيئة التدريس كل حسب اختصاصه . وتتولى الاشراف على شؤون المكتبة المركزية لجنة خاصة من ممثلين عن ادارة الجامعة



المكتبات تيسر على الطلاب استقراء الحقائق والمعلومات التي يحتاجون اليها في اعداد أبحاثهم ودروسهم .. وقد بدا في أقصى الصورة أمين المكتبة وأحد المساعدين في الشؤون المكتبية .

وأعضاء هيئة التدريس والمكتبة . وبين حنايا المكتبة الآن ما ينوف على ٢٣ ألف مجلد ، بالاضافة الى العديد من الكتب والمطبوعات والدوريات . وتتلقى المكتبة باستمرار الكثير من الكتب والمجلدات والمطبوعات على شكل هدايا يتبرع بها المؤلفون أو أصحاب المكتبات الخاصة.

وقد ألحقت بالمكتبة وحدة للأفلام المصغرة « المايكروفيلم » بلغ مجموع أفلامها ١٨٨ فلما منها ٤٦ بالعربية والبقية بالانجليزية .

وتصدر المكتبة نشرات دورية عما يردها من كتب ومجلدات ، كما تقوم بتصوير المخطوطات القيمة في بعض المكتبات المحلية المعروفة . كمكتبة الحرم المكي الشريف ، و « مكتبة عارف حكمت » ، ومكتبة الحرم النبوي الشريف وغيرها توطئة لفهرسة تلك المخطوطات .

مركز تعليم اللغة الانكليزية

تدرك الجامعة ان اجادة اللغة الانجليزية من الأمور الضرورية ، ولذا فانها تركز على تعليم اللغة الانجليزية في السنة الاعدادية عن طريق استعمال معمل اللغة الذي يتسع لنحو ٣٥ طالبا في الحصة الواحدة . والهدف من هذا المعمل هو تمكين الطلاب من التعود على مخارج الكلمات الصحيحة وتحسين النطق .

مختبر العلوم

الغرض الأساسي لهذا المختبر هو اجراء التجارب العلمية الأساسية في مواد الفيزياء والكيمياء والأحياء لطلبة السنة الاعدادية .. وما يزال هذا المختبر صغيرا ناشئا محدود الامكانيات ، بيد ان الجامعة تعمل على توسعته وتزويده بما يلزمه من أجهزة علمية لمختلف التجارب ليكون نواة لمختبر كلية العلوم عندما يتم انشاؤها في المستقبل .

متحف التاريخ الطبيعي

كان لموقع مدينة جدة على ساحل البحر الأحمر الغني بثرواته المائية أكبر الأثر في ابراز فكرة هذا المتحف الى حيز الوجود . فلقد أنشأت الجامعة في العام الماضي متحفا للتاريخ الطبيعي يضم هياكل بعض الحيوانات والأسماك . وقد بلغ عدد قطع التحف في نهاية العام الماضي نحو مائتي قطعة من السمك والطير والحيوان ، من بينها بعض العينات الأثرية . ويضم المتحف قاعات ثلاث ، خصصت احداها للطيور والحيوانات ، والأخرى للأسماك ، والثالثة للجيولوجيا ومنتجات الزيت الممثلة في عينات ونماذج كانت شركة الزيت العربية الأمريكية « أرامكو » قد أهدت الكثير منها الى الجامعة . ويقوم المشرف على متحف التاريخ الطبيعي برحلات استطلاعية لجمع العينات من البر والبحر بالتعاون مع ادارة الثروة السمكية والمائية في فروع وزارة الزراعة بجدة . وتتعاون الجامعة في هذا السبيل مع المسؤولين في متحف التاريخ الطبيعي بجامعة بغداد من أجل تطوير هذه النواة وتحويلها الى متحف عام للتاريخ الطبيعي .

النشاط الرياضي والاجتماعي والثقافي

على اليسار من مبنى كلية الاقتصاد والادارة وبالقرب من حديقة البرتقال والليمون يقع ملعب كرة القدم ، وهناك أيضا ملاعب لكرة السلة ، والكرة الطائرة ، وقاعات لكرة الطاولة ، وتشرف اللجنة الرياضية على مختلف نشاطات الطلبة الرياضية .

أما في حقل النشاط الاجتماعي ، فقد أقيم في الجامعة خلال العام المنصرم عدد من المعارض التي تضم عينات من الانتاج الفني للطلاب والفنون الجميلة والصخور القمرية التي جلبها رواد العربة « أبولو — ١١ » من سطح كوكب القمر . وقد لقيت هذه المعارض اقبالا شديدا من المهتمين بالشؤون الفنية والعلمية . ولا يقل نشاط الطلبة في ميدان الرحلات عن نشاطهم في الميادين الأخرى . وقد قام الطلبة والأساتذة خلال العام الماضي برحلات شملت الأماكن المقدسة ، وغار حراء ، ووادي خليص ، وجزيرة الواسطة ، والرياض ، والمنطقة الشرقية من المملكة . كما ان فريق جوالة الجامعة يسهم في النشاط الكشفي ويشارك في مؤتمرات الكشافة العالمية .

هذا ، وتقوم اللجنة الثقافية بتنظيم موسم الحفلات الثقافية ودعوة المحاضرين من كبار الأساتذة والعلماء من عرب وأجانب لالقاء محاضرات وعقد ندوات في مختلف المواضيع والأبحاث التي تهدف الى تنشيط المناخ الثقافي والعلمي للجامعة . وفي ميدان مكافحة الأمية قام الطلبة بالتدريس في الصفوف التي عقدتها الجامعة لبعض مستخدميها .

ويضم نادي الطلاب ثماني لجان رئيسية ، هي : اللجنة الثقافية ، واللجنة الرياضية ، واللجنة الكشفية ، ولجنة السمر والتمثيل ، ولجنة الرحلات ، ولجنة الآثار ، ولجنة صندوق الطلبة بالاضافة الى لجان فرعية أخرى تضطلع بالدراسات



طلاب أحد فصول الجامعة يستمعون لمحاضرة يلقيها عليهم أحد أساتذة الجامعة في المدرج .

الاسلامية ، وهناك أيضا نادي العلوم ، ونادي اللغة الانجليزية ، ونادي التصوير .

أما في مجال اعارة المدرسين والزيارات فان جامعة الملك عبد العزيز تتعاون مع مختلف الجامعات العربية والأجنبية مثل بغداد ، والخرطوم وكراتشي ، وبيشاور ، ومجلس الجامعات البريطانية « Inter University Counsel »

الابتعاث

تسير الجامعة بخطى حثيثة في ميدان ابتعاث الخريجين الى مختلف الجامعات لمواصلة تخصصهم في مختلف الفروع والأبحاث ، وذلك من أجل استكمال الجهاز التعليمي والاداري لمختلف فروع الجامعة ولمواكبة التقدم الذي يطرأ على مختلف الأقسام . وقد بلغ عدد المبتعثين للدراسات العليا في نهاية العام الماضي (١٣٨٩/١٣٩٠) ستة وثلاثين مبتعثا ، بينهم أربع طالبات . وتقرر ابتعاث أحد عشر طالبا وطالبة لهذا العام الى جامعات بريطانيا والولايات المتحدة من أجل التخصص. وتقوم وزارة المعارف بالانفاق على عدد من المبتعثين عن طريق المنح الدراسية التي تقدمها في هذا المضمار . أما بقية المنح الدراسية فتتولى الجامعة أمر الانفاق عليها ، بالتعاون مع بعض الهيئات والمؤسسات المحلية ■

ن. م.

تصوير : علي محمد خليفة



« سلامة الأذهان في سلامة الأبدان » .



تعين طلاب الجامعة بهذا الجهاز الظاهر في الصورة في استيضاح ...ة الكتابات المصورة على أفلام مصغرة « Micro Films » .

وقفة .. مع الشعر الجاهلي

بقلم الاستاذ عبد الكريم الخطيب

الفترة التي سجلها التاريخ من حياة الشعر الجاهلي ، فترة قصيرة ، لا تكاد تعدّ شيئا الى الحياة الطويلة التي عاشها قبل هذه الفترة المعروفة من حياته .. فهذا الشعر الجاهلي الكثير الذي أمكن تسجيله من أفواه الرواة وصدور الحفاظ ، في عصر التدوين أيام الدولة العباسية ، هو بعض ما حفظ من شعر لقليل من شعراء تلك الفترة ، التي كانت قبيل ظهور النّبي بمدة لا يتجاوز مداها القرن أو القرن ونصف القرن على أكثر تقدير . وهو في جملته لا يمثل الا الأسطر الأخيرة في الصفحة الخاتمة ، لكتاب ضخم ، كان يمكن أن يكون سجلا لهذا الشعر ، لو صادف أمة غير أميّة ، تقيد آثارها وما عملت أيدي أبنائها .

ومن الواضح أن الشعر الذي عرف عن تلك الفترة المحدودة ، اعتبر الصورة الكاملة للشعر الجاهلي . وعن هذا الشعر صدرت آراء النقاد والدارسين للحياة العقلية والاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، للأمة العربية في جاهليتها ، اذ كان هذا الشعر هو وحده الأثر الأول والأخير ، الذي انطبعت عليه السمات الظاهرة والخفية للحياة الجاهلية . فما عرف الجاهليون فنّا غير فنّ الشعر ، ولا أداة غير أداته ، لتسجيل أحداث الحياة التي يحيونها ، وما يقع في نفوسهم من انفعالات وخوالج ، وتصورات ، فهم لم يعالجوا النحت ولا التصوير ، ولم يعنوا بالموسيقى ، ولا الرسم والزخرفة ، فكان الشعر وحده هو النافذة الوحيدة التي أشرفوا منها على دنيا الفن كله ، فسكبوا فيه نبضات قلوبهم ، وخلجات صدورهم ، ونفضوا عليه ما في كيانهم من مهارة وحذق وذكاء .

ومن عجب ألا يتجه الجاهليون الى فن كالنحت مثلا ، وألا يكون لهم فيه مكان مرموق بين الأمم التي عالجته وبرعت فيه ، كالفراعنة واليونان ، وفي بلاد العرب جبال وصخور ، جدد بيض ، وحمر مختلف ألوانها ، وغرابيبُ سود ، هي مادة هذا الفن والمغرية به ! ! وفي حياة الجاهليين أصنام وأبداد متعددة ، يتخذونها من الصخور والأحجار ، ويسوونها على الوجه الذي يريدون . من عجب أن تكون مادة النحت ودوافعه على هذا الوجه المتمكن في الجزيرة العربية ، ثم لا يكون للجاهليين اتجاه اليه ، ولا رغبة فيه ، مع توفر الوقت الذي يكاد يكون كله فراغا ! وليس شيء كالنحت ، استنفادا للوقت .

ثم الموسيقى ! ! ما بالهم لم يبرعوا في الألحان ؟ ولم يفتنّوا في اختراع الآلات ؟ والحياة من حولهم في سكون شامل ، ووحشة مطبقة ؟ وليس شيء أفعل من الموسيقى لبعث الحياة في هذا السكون ، ولا ألزم منها لتبديد هذه الوحشة .

ونبحث عن العلة ، أو العلل التي صرفت العرب عن النحت والموسيقى وغيرهما من الفنون ، فلا نجد لها سببا يمكن أن يتصل بالأسباب التي تصرف الأمم عنها . فمادة هذه الفنون عندهم موفورة ، ودوافعها لديهم عقيدة حاضرة ، واستعدادهم الفطري لها على أتم ما يكون وأكمله ! ؟ شعور مرهف ، ووجدان سليم ، وذكاء حاد ، ونظر عميق ، وفراسة صادقة ، وحيوية متدفقة .. ومع هذا فلم يكن للجاهلين تعلّق بأي فن غير الشعر ! !

فان كان لا بد من علّة نذكرها ، أو سبب نرجع اليه هنا ، فانا لا نجد الا الشعر نفسه ! ! فلقد فتن الجاهليون بالشعر ايما افتتان ، واستطاعوا به أن يملأوا كل جانب من جوانب حياتهم ، وأن يرضوا به كل عاطفة تنبض في كيانهم ، فاستغنوا بفن الكلمة عن كل فن ، اذ كانت أخف محملا ، وأقرب استجابة ، وأكثر طواعية .. يجدونها في الظعن والاقامة ، وفي البدو والحاضرة ، وفي المنشط والمكسل ، يستقل بها الفرد وحده ، دون أن يحتاج الى غيره ، أو يجلس الى من يشاركه ويعينه ! !

ذلك أظهر ما نراه من علّة لهذه الظاهرة ، يساندها ما عرف من تمكن الشعر في نفوس العرب ، وشدة وقعه عليهم ، وقوة سلطانه فيهم .. فالبيت من الشعر يرفع القبيلة أو يسقطها ، والبيت من الشعر يضع الرفيع ، ويرفع الوضيع . ولقد ترك الشعر صورا رائعة لهذا اللون من ألوانه ، الذي كان له أثر كبير في تغيير مجرى الحياة للكثير من القبائل والأفراد ، والذي ظل متحكما في موازين الناس أجيالا طويلة متعاقبة ، لا ينقضها الزمن ، ولا تغير منها الأحداث .

من أجل هذا ، كانت نظرة العرب الجاهليين الى الشعر والشعراء نظرة اعجاب وتقدير عميقين ، فكان اذا ظهر في القبيلة شاعر اعتبر ظهوره

ايذانا بمطلع سعدها وبمولد العزة والسيادة فيها ، واذا قال الشاعر قصيدة ، وعتها العقول ، وحفظتها الصدور ، ورددتها الألسنة ، وتنقلت بين القبائل ، فحدا بها الركبان ، وسمر بها السمّار ، وعمرت بها المجالس ، وأصبحت رواية خالدة تمثل على مسرح الحياة في الجزيرة العربية كلها .

وقد شك بعض مؤرخي الأدب العربي في تعليق المعلقات ، وهي أشهر قصائد قيلت في الجاهلية ، بأستار الكعبة ، وفي تسميتها بهذا الاسم المشتق من هذا العمل ، كما شك في تسميتها بالمذهبات ، لأنها كتبت بماء الذهب ، احتفاء بها ، وتكريما لها .

ولكن الذي يتصور الحياة الجاهلية ، ويعرف ما كان للشعر من أثر فيها – يقع في يقينه أن هذا الذي قد يكون الجاهليون صنعوه بالقصائد المشهورة عندهم ، هو مما يتفق تماما والمكانة التي كانت لهذا الشعر في نفوسهم ، وانه ليس في هذا من غرابة عند قوم لم يكن لهم متعة في الحياة ، ولا متنفس فيها غير هذا الفن الجميل : فن الكلمة ، ونظمها في قوالب الشعر !!

كانت قبيلة « تغلب » من أعظم قبائل العرب ، وأشدها بأسا ، حين أدركها الاسلام ، وحتى انها – لعزتها وأنفتها – أخذتها العزة بالاثم ، فاستحبت العمى على الهدى ، وأبت أن تدخل في الاسلام حين دخل فيه الناس أفواجا ، وآثرت أن تهاجر من أوطانها وتلحق بقيصر الروم ، حين فرض عليها عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أن تدخل في الاسلام ، أو تفرض عليها الجزية كما تفرض على أهل الذمة ، فلما لم تقبل أي الأمرين ، وتهيأت للهجرة ، رأى عمر أن يمسك بهذه القبيلة ، ويحتفظ بها في المجتمع العربي ، وأن يضاعف عليها الجزية !!

هذه القبيلة – وهذا شأنها من القوة والعزة – كان دستور حياتها ، ومبعث فخرها وعزّها ، هو تلك القصيدة ، التي أنشأها أحد شعرائها وسادتها « عمرو بن كلثوم » التغلبي ، وهي احدى المعلقات أو المذهبات السبع المعروفة !! فلقد لعبت هذه المعلقة دورا كبيرا في حياة هذه القبيلة ، وتركت آثارا واضحة في عواطفها ومنازع تفكيرها ، حتى لقد أقامتها على هذا العناد الآثم ، والكبر القاتل ، فأغلقت قلبها وعقلها عن كل نسمة خير تهب عليها ، أو لمعة نور تطلع في سمائها ، لا يكون مصدرها هذه القصيدة التي تعيش فيها ، وتقتات من ثمرها ، فلم تستمع لدعوة النبي ، عليه السلام ، ولم تمد عينها لأنوار السماء ، وفي يقينها أن حسبها أن تتخذ من هذه المعلقة دستورا لها في كل أمورها .

فموقف قبيلة تغلب هذا الموقف الشاذ من الاسلام ، دون قبائل العرب جميعا ، انما ترجع أسبابه في أغلبها الى هذه المعلقة ، والى تعلق القوم بها تعلقا شغلهم عن كل شيء الا ترتيلها ، والهتاف بها في كل غدوة وروحة ، حتى لقد نفذت الى صميم عقولهم وقلوبهم ، فأغرتهم بهذا الكبر الآثم ، وحملتهم على هذا المركب الصعب ، وباعدت بينهم وبين دين الله الحق .

ولسنا نقول هذا استنتاجا مما عرف عن هذه القبيلة من موقفها العنادي الذي وقفته من الاسلام ، وانما ذلك عما سجله الذين شهدوا هذا الحدث ، ورأوا بأعينهم الآثار الواضحة التي تركتها المعلقة في هذه القبيلة . وفي هذا يقول أحد الشعراء المعاصرين لقبيلة تغلب ، والمشاهدين لمجرى الحياة فيها ، ولسلطان المعلقة على قلوب أبنائها وعقولهم .. يقول الشاعر :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة
قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

فهذا مثل من أمثلة كثيرة لما كان للشعر الجاهلي من سلطان قاهر في الحياة الجاهلية . ولولا أصالة الفن في هذا الشعر ، لما صبر الجاهليون طويلا عليه ، ولما عاشوا فيه وحده عمرهم كله ، ولالتمسوا لهم فنّا آخر أو أكثر من فن ، يساند هذا الشعر ، أو يخلفه في التعبير عن مشاعرهم ، والتنفيس عن عواطفهم ، ولكن أصالة هذا الفن ، قد سدّت حاجتهم الفنية ، وأرضت كل مطالب العقل والقلب جميعا ، فأغناهم ذلك عن أن يلتمسوا فنا غيره ..

فلمّا أن جاء الاسلام بالقرآن الكريم وبلاغته المعجزة ، استطاع أن يخفت صوت الشعر ، فسكنت حميّاه في الصدور ، بعد أن امتلأت القلوب والعقول بمشاعر العقيدة الاسلامية ، وكان في آيات الكتاب الحكيم ، وفي ترتيلها على هذا النحو الذي ترتل به ، ارضاء كامل لحاجة القلب ، وخلجات الضمير ، لما في آيات الله من ألوان العواطف الانسانية : من أمل واشفاق ، ورجاء وخوف ، وتبشير وانذار ، ووعد ووعيد ، وحب وبغض ، وحرب وسلام .. الى غير ذلك مما ضم عليه الكتاب الكريم ، وعرضته آياته وسوره ، هذا العرض المعجز المبين .

ومع الآثار القوية الواضحة التي تركها الدين ، وكتابه الكريم في عقلية العرب ، وفي مسارب تفكيرهم ، وفي مجريات تصوراتهم وأخيلتهم ، ومع ما أفاضت عليهم الحياة الجديدة من ألوان ومظاهر لم يكن لهم عهد بها ، ومع العقليات الجديدة التي اختلطت بهم وحسبت عليهم ، ومنهم ، ومع الثقافات المتعددة ، والفنون المختلفة التي دخل بها الداخلون في الاسلام ، من فارس ، والروم ، والهند ، ومصر ، وغيرها .. مع هذا كله ، وكثير غيره ، فقد ظل سلطان الشعر الجاهلي قويا على النفوس ، متمكنا من العقول والقلوب ، فلم تجد الأمة العربية الاسلامية بدا من الاحتفاظ به ، على صورته تلك التي وجدته عليها ، فأقامته على رأس الفنون التي قدر لها في حياتها الجديدة أن تأخذ بحظها منها ، اذ لم يكن في مقدورها أن تجيء بأبلغ منه ، اذ كان في أعلى مستوى يمكن أن يصل اليه الفن العبقري من فنون القول ، على لسان بشر ! .. وهكذا ظل الشعر الجاهلي ، وسيظل أبدا – في أنماطه وصوره – جامعة الشعر العربي ، وملهم الفحول من شعرائها ■

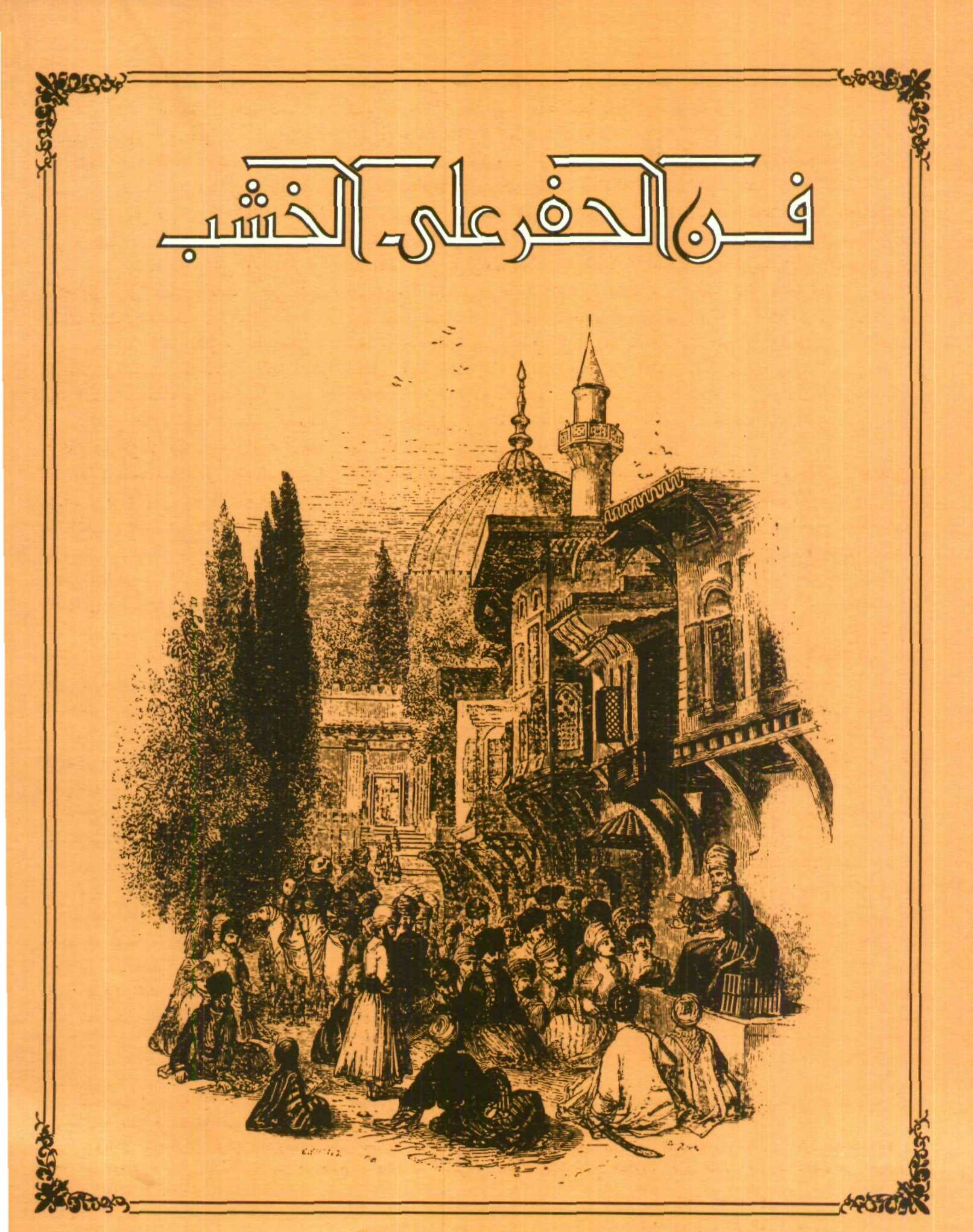
تعقيب

لقد طالعت العدد الحادي عشر من المجلد الثامن عشر من مجلة قافلة الزيت ، وكم سررت بالمقال العلمي « حيوانات في صحاري المملكة » غير أنه توجد غلطة علمية في التعليق على الصورة المنشورة على الصفحة الداخلية للغلاف الخلفي من العدد نفسه .

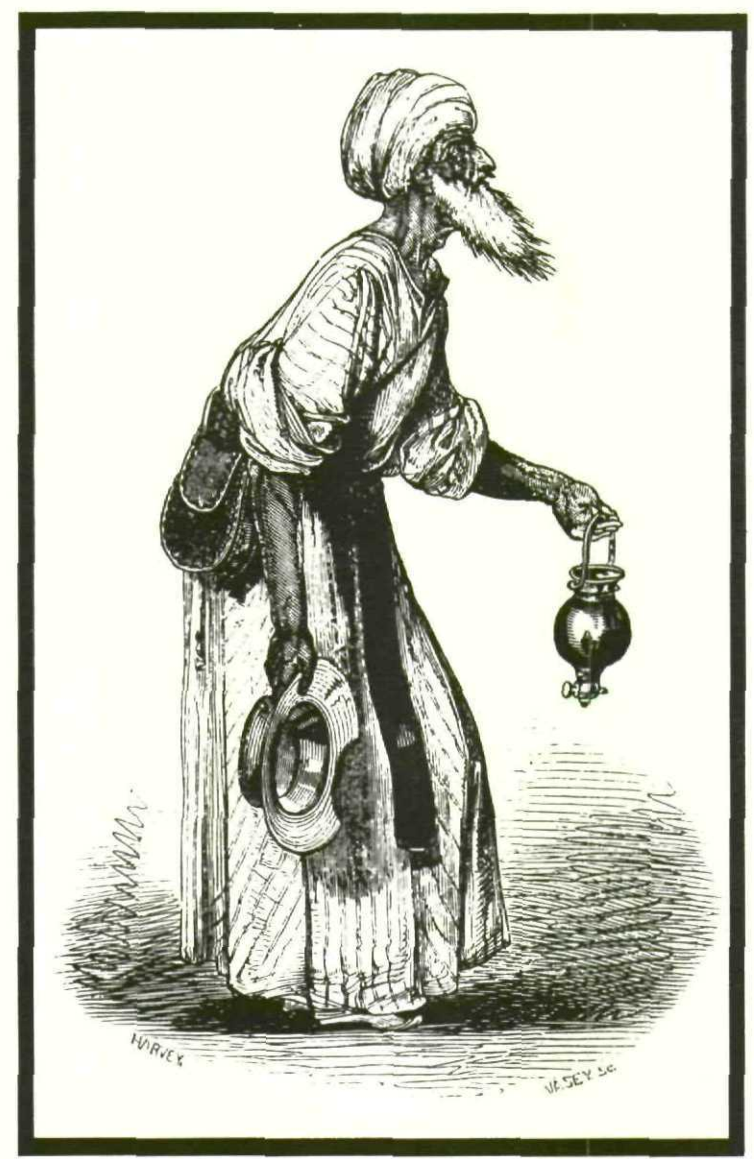
فالصورة لا تمثل الوعل الموجود والمعروف في بعض الجبال بالمملكة العربية السعودية وانما تمثل حيواناً آخر يعرف باسم « الخروف الاول Wild Sheep » وهو غير موجود حاليا في المملكة ، ومن المرجح أن يكون قد انقرض في عصور بعيدة مع حيوانات أخرى مازالت صورها منقوشة على الصخور الاثرية القائمة في جهات عديدة ..

حمد محمد العبيدي
مرشد زراعي ورئيس قسم الأسماك
بوزارة الزراعة والمياه – فرع جدة

فن الحفر على الخشب



لم يحظ سفر عربي باهتمام المستشرقين ككتاب «الف ليلة وليلة»، فهو من أكثر المؤلفات رواجا وأوسعها انتشارا وأبلغها أثرا في نفوس الناس. حكاياته تحلق بالقارئ في أجواء الخيال وتفيض بروحانية الشرق وجماله، فهي تتناول أخبار الانس والجن، وأخبار الوحوش الكواسر وأخبار القرى والمدائن، وأخبار الكنوز المرصودة والجواهر الفريدة. كتاب الف ليلة وليلة عالم صاخب، نابض بالحركة مترع بالحكمة. حكاياته غنية بألوانها وموسيقاها فكانت مصدر إلهام لكثير من الفنانين والرسامين والموسيقيين. وقد صدرت منذ ما يزيد على المائة سنة ترجمات عديدة لهذا المؤلف ازدانت بالرسوم الفاخرة التي تصور أحداث لياليه أدق تصوير، فكانت بمثابة نافذة يطل منها الغرب على الشرق.

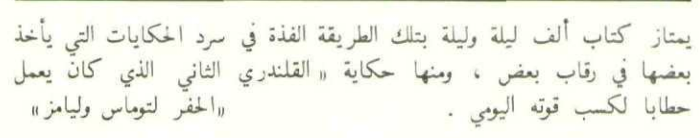


« المزين البغدادي » ولسان حاله يقول : « أنا الشيخ الصامت، وليس لعلمي ومعرفتي حدود .. قرأت الكتب ودرستها ، ومارست الأمور وعرفتها ، وحفظت العلوم وأتقنتها ، وتعلمت الصنعة وأحكمتها ، وأنا قليل الفضول ، ولأجل هذا أدعى بالصامت الرزين » « الحفر لفيزي »

عندما كان « ريتشارد بيرتون » عاكفا على ترجمته لكتاب « ألف ليلة وليلة » ، التي حظيت بشهرة واسعة ، لم يفته أن يضع تعليقا قصيرا عن النيل من ترجمة سبقه اليها « وليام ادوارد لين » . ويقول « بيرتون » في تعليقه على ترجمة « لين » التي ظهرت في عام ١٨٦١ أنها لم تلاق ما لاقته من نجاح الا بفضل ما تزدان به من نقوش قام بتصميمها فنان يدعى « وليام هارفي » . ومع ما في تعليق « بيرتون » من تحامل ظاهر على منافسه المستشرق « لين » ، الا أنه يلقي أضواء على فن الحفر على الخشب الذي اشتهر به « وليام هارفي » والذي استوحاه من الليالي العربية التي اتخذها مادة يزين بها رسومه ونقوشه . فتصاميمه تشمل فن الزخرفة العربي بجاذبيته وطرافته ، والكتابات الكوفية بجمالها وغرابتها . وقد ازدان مطلع كل فصل من فصول مجلداته الثلاثة بالزخارف الرأسية والنقوش الصغيرة التي تصور بايجاز أحداثه ووقائعه . وتشهد الرسوم المنقولة عن تصاميم حفرها « هارفي » على الخشب على ما بلغه هذا الفن من رقي ورفعة باعتباره من أصعب ألوان الفنون قاطبة وأكثرها دقة وأجملها تعبيرا .

وفن الحفر على الخشب ليس حديث عهد ، بل يرجع تاريخه الى زمن المصريين القدماء . فهم كانوا يحفرون الحروف الهيروغليفية على قوالب من الآجر ثم يكبسون القوالب على قطع من الطين . ثم جاء الصينيون واستعملوا الحفر على الخشب لطبع الرسوم والنقوش المختلفة على القماش . وبعد عدة قرون استعمل الرومان





يمتاز كتاب ألف ليلة وليلة بتلك الطريقة الفذة في سرد الحكايات التي يأخذ بعضها في رقاب بعض ، ومنها حكاية « القلندري الثاني الذي كان يعمل حطابا لكسب قوته اليومي .

«الحفر لتوماس وليامز»



« السندباد البحري » وقد تحطمت سفينته في السفرة الخامسة يرى وهو يساعد عجوزا وقد حمله لينقله الى الجانب الثاني من الساقية ، وما درى انه قد حمل « مارد البحر » على كتفيه الذي سرعان ما لف ساقيه حول عنق السندباد محاولا خنقه فمادت به الأرض واسودت الدنيا في وجهه ووقع على الأرض مغشيا عليه .

« الحفر لتوماس وليامز »

الطريقة نفسها لطباعة الحروف الأبجدية والأرقام .

وكان الحرفيون ابان العصور القديمة يعمدون الى قوالب من الخشب ليحفروا على سطوحها رسوما أو أشكالا أو خطوطا بارزة أو عميقة بحبيبات بلورية صغيرة قاسية ، ثم يقطعون الزوائد الخشبية ، لتظهر عند طبعها على شكل خطوط سوداء . وكان بالامكان أيضا تحبير تلك النقوش وطبع الرسوم الايضاحية التي تزخر بها الكتب . ومع مرور الزمن حظيت هذه الطريقة برواج كبير وأصبحت تعد الطريقة المثلى ، وبالتالي مهدت الطريق أمام طباعة الكتب على نطاق واسع .. وهكذا تقدمت صناعة الحروف المنفصلة .

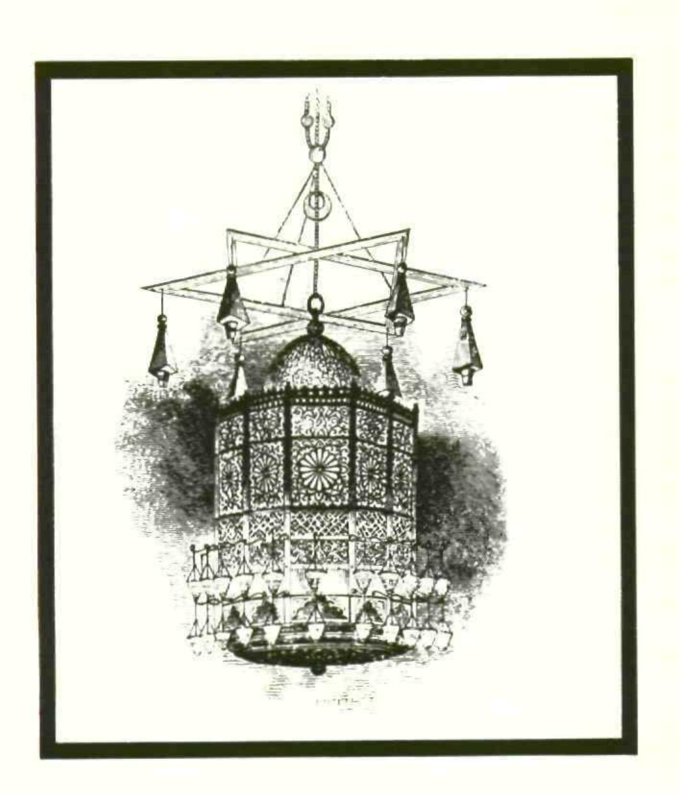
وفي أوائل القرن السادس عشر أدخل « ألبرت دورر » تحسينات جمة على هذا الفن حتى وصل به الى درجة عالية من الرفعة والرقي . الا أن استعمال المعدن وخاصة القصدير بدلا من الخشب في هذا المضمار أدى الى التقليل تدريجيا من انتشار طريقة الحفر على الخشب ، وهكذا تضاءل استعمال الخشب في هذا الفن تضاؤلا كبيرا حتى أصبح فن الحفر على الخشب في بداية القرن الثامن عشر من الفنون الصائرة الى الزوال .

ومع مولد الثورة الصناعية التي اجتاحت أوروبا في أواسط القرن الثامن عشر ، ظهرت هنالك أدوات جديدة مكنت رجال الصناعة من تطوير أسلوب جديد في فن الحفر على الخشب وهو أسلوب يختلف اختلافا بينا عن الأسلوب التقليدي القديم ، فبدلا من قطع الزوائد الخشبية حتى تظهر الخطوط السوداء عند الطبع ، عمدوا الى حفر أخاديد في الخشب على شكل « ٧ » تظهر بيضاء عند طبعها . وهذه هي الطريقة التي يطلق عليها اليوم « الحفر على الخشب » . ومع أن هذه الطريقة لا تضاهي طريقة الحفر على المعدن بوضوح معالمها وجلاء خطوطها ، الا أن تكاليف الحفر على المعدن الباهظة بسبب طبع كل لوحة معدنية على حدة ، من جهة ،

« حياة الأجيال السابقة هي خير درس للأجيال القادمة » هكذا قدم وليام لين ترجمته لكتاب ألف ليلة وليلة ، واتخذ من قصة « حسن الصائغ البصري » دليلا على ذلك ، حين أقلع بمركبه من ميناء البصرة ، الدائب الحركة ، فألقت به الأمواج الى جزر « واق الواق » .
« الحفر لويمبر »



رسمة أخرى « لإيفانز » محفورة على الخشب تمثل قصة « الملك جودر » ، وهي احدى قصص « ألف ليلة وليلة ».



مصباح بحجمه الطبيعي قام بحفره على الخشب « وليامسون » .



« اكتشاف أرم ذات العماد » التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، والتي يقال أن حصى شوارعها كان من الجواهر النادرة وغبارها من المسك النفيس . ومن غريب الصدف أن يعثر على ذلك الفردوس الأسطوري « عبد الله الجمال » بينما كان يفتش عن جمله الضائع في اليمن . « الحفر لويمبر »

والتحسينات المستمرة لطريقة الحفر على الخشب من جهة أخرى ، أتاحت الفرصة لهذا الفن أن يظهر من جديد بعد أن كاد أن يتلاشى ويندثر . وبظهور الفنان الاسكتلندي « توماس بويك » (١٧٥٣ – ١٨٢٨) خطا هذا الفن خطوات واسعة الى الأمام ، حتى تفوق على فن الحفر على المعدن . ولم يقتصر عمل هذا الفنان على انتاج الرسوم الفنية الممتازة ، بل قام أيضا بتعليم هذا الفن الى عدد كبير من التلاميذ البارزين ، أمثال « وليام هارفي » . وقد بلغت تلك النقوش التي صممها « هارفي » حدا من الجمال ، بحيث أصبحت تعتبر من أروع الأمثلة لفن الحفر على الخشب تظهر بين دفتي كتاب . فهي رسوم جميلة الزخرفة مترفة الى أقصى الحدود ، وقد بلغت من الدقة في تصوير حكايات ألف ليلة وليلة حدا جعل كثيرا من الفنانين ينقلون عنها « تابلوهات » محفورة على الخشب ■

نشرت هذه الصور باذن من « جون برنتون » **س. ن.**



للشاعرة روحية القليني

تواري دموعي خلف الجفون
ولا تحسبي بسماتي خداعا
أأشكو محال ؟ وأبكي حرام ؟
وان فؤادي نبع الاباء
والقاهمو فأحيل الدموع
أخاف اذا حدقوا في العيون
فأغمضها حينما نلتقي
علام البكاء وطول الشجون
اذا زهرة قد ذوت في الخريف
لماذا أجن على ما ذوى
أعمري أقضيه نهب الظنون
فقلبي شباب وعمري عبير
سأمضي مع الطير وثابة
أداعب غصنا والثم زهرا
[illegible] سوف أشدو عليها
[illegible] والنجم في ليلة
[illegible] هدبي ينام عليه
مللت قيودي سأطلق قلبي
ويقطف زهر الروابي عبيرا
وأنشد من ذوبه أغنيات

فعزة نفسي أبت أن تهون
وملء فؤادي الأسى والأنين
حرام وان طال ليلي الحزين
وفي نبضه كبرياء السنين
حديثا شجيا رقيق الرنين
تشف وتكشف سري الدفين
ويحرق جفني نار الظنون
وروضي قد ضم حسن الفتون ؟
يهل الربيع بعطر الغصون
على من توارى ومن سيكون ؟
ومن قد وفى ومن قد يخون ؟
وفني سيخلد بين الفنون
أغني وأنهل عذب المعين
وأشدو هياما مع الهائمين
أغاريد حبي مع الحالمين
يهز صداها هوى الساهرين
حديث الليالي وهمس الحنين
يطير مع النور لا يستكين
يعطر بالمسك درب السكون
يرددها الفجر للحائرين

ألاعيب العقل الباطن وحيله

بقلم الدكتور الراحل محمد مظهر سعيد

تصدر عن الانسان في الكثير من المواقف الجادة ، وهو في تمام شعوره وانتباهه ، دون قصد أو هدف ظاهر أو سابق تفكير وتدبير وبطريقة عفوية عشوائية ، تصرفات تبدو غريبة في وقتها لأنها لا تتصل بالموقف القائم في كثير أو قليل وقد يلحظها غيره من الناس فيخار هو وهم في تفسيرها أو يلحظونها ولا يعيرونها اهتماما لأنها تافهة قليلة الأهمية لا تقدم ولا تؤخر في سياق الموقف ويعدونها هفوات عابرة أو هنات وقد ينسبونها لانشغال البال أو سرحان الذهن أو التعب وبالجملة يحسبونها ضربا من العبث ولا يحسبون لها حسابا .

ولكن علم النفس الحديث اهتم بدراسة هذه الظاهرة وحللها وكشف عن سر خطير يكمن وراءها . والحقيقة الأولى التي هي مفتاح هذا السر ، هي أن كل ما يصدر عن العقل البشري من قول أو اشارة أو حركة أو تصرف ، مهما بدا في الظاهر تافها لا معنى له ، لا بد أن يكون له معنى خفي باطن وهدف مستور يسعى لتحقيقه ولو بطريقة غير مألوفة لا تجذب الانتباه ولا تثير الاهتمام . وقد نجح التحليل النفسي في تفسير هذه الظواهر وتعليلها وردها الى الصراع النفسي بين العقلين الباطن والظاهر . فهي في الواقع من حيل العقل الباطن التي يصطنعها ليعبر بها عن مكنوناته وينفس عنها بأسلوب يضلل به العقل الظاهر فتجوز عليه الحيلة .

والتفسير العلمي يتضمن بالضرورة مصطلحات دقيقة قد تصعب على القارىء العادي مثل الصراع والكبت واللاشعور والقلق والتنفيس والتعويض وغير ذلك ، ولكنا نستطيع أن نقول في بساطة وايجاز أن سلوك الانسان تتحكم فيه طائفتان من الرغبات التي تتطلب التحقيق والاشباع : فهناك أولاهما الدوافع الطبيعية الأصيلة الموروثة التي تدفعه لاشباع الرغبات الحيوية الضرورية التي تمكنه من الكفاح في سبيل العيش والبقاء كمجرد كائن حي . وهذه الدوافع الموروثة البدائية تجعل سلوك الانسان بالضرورة بدائيا لا يرضى عنه أي مجتمع يكون الفرد عضوا فيه . وثانيهما الدوافع الرامية الى تحقيق حاجات ورغبات مكتسبة في المجتمع الذي يعيش فيه بالأساليب التي يرضى عنها المجتمع وتتفق مع قوانينه وتقاليده وآدابه العامة . والدوافع الأولى يتحكم فيها ما يسمى « العقل الباطن » ، والثانية يتحكم فيها ما يسمى « العقل الظاهر » . وتقضي ظروف الحياة الاجتماعية أن يحد العقل الظاهر من السلوك العدواني وينصب نفسه رقيبا على العقل الباطن ليمنعه من أي سلوك يبدو في ظاهره خارجا على أصول المجتمع ، وبعبارة أخرى تهيمن النفس العاقلة المدركة « أنا » على النفس البدائية « هي » . ولكن العقل الباطن لا يعدم الوسيلة للافلات من هذه الرقابة واصطناع الحيل لاقحام نفسه في مجال الشعور في غفلة من العقل الظاهر .

ومن ألطف هذه الحيل وأبسطها فلتات اللسان التي تعبر عن شعور كامن بالقلق ينفس عن نفسه بالظهور ، أو رأي صريح تقتضي المجاملة والنفاق الاجتماعي أو الخوف من الجهر به أن يكبت ، أو رغبة مكبوتة تتوق لتحقيقها في الحقيقة أو بالخيال . فكثيرا ما يزل اللسان في أحد حروف الكلمة أو الكلمة ذاتها أو الجملة بأكملها فيكون مثارا للضحك أو التندر مما يوقع الانسان في خطأ غير مقصود قد لا يستطيع اصلاحه فيما بعد . ويغيب المعنى الكامن وراء اللفظ الظاهر عن المستمعين . وقد يطلب من الانسان أن يبدي رأيه في موضوع أو يتكلم في حفلة تكريم لانسان أو يرجو انسانا في أمر ما والظروف تحتم عليه أن يقول غير ما يعتقد فيزل لسانه بكلمة مفارقة للموضوع تكشف للملاحظ الدقيق عما في قرارة نفسه .

ومن الأمثلة العلمية على ألاعيب العقل الباطن وحيله أن أحد الأساتذة الجامعيين كان يحاضر في اصلاح احدى القرى الريفية ويحاول أن يعطي صورة طيبة للريف ويبشر بمستقبل قريب مشرق يعتقد هو أنه صعب التحقيق ان لم يكن مستحيلا ، فقال : اني أؤمل أن تسير بلادي نحو الرقي والتقدم بخطى واسعة في مستقبلها الماضي .

وأستاذ جليل آخر يخطب في حفل لاحدى الجمعيات الكبرى ، ويحتم عليه الموقف أن يشيد بالنشاط الرياضي وهو يعتقد أن المدرب مهمل وغير كفء ، فيقول : « ولا يفوتني أن أنسى فضل الألعاب الرياضية . بدلا من (أن أذكر) ، وتجوز الحيلة وتضيع الهفوة بين موجة التصفيق . وهناك شخص قدم له على المائدة لفتا مخللا مدحه أصحاب البيت ولكنه وجده رديئا فقال بصفة جادة لا يقصد بها النكتة « وماء الزفت له دواء » بدلا من الجملة المأثورة « وماء اللفت » وزار شخص صديقا له يباهي بما عنده في مجموعة تحف أثرية ويبالغ في تقديرها وأراد هذا الشخص أن يجامل صديقه ولكن لسانه زل فقال : « حقا انها لا تساوي على أقل تقدير ألف جنيه » فشكره الصديق ولم يفطن لكلمة « لا » .

ومن زلات اللسان التاريخية المثبتة رسميا في محضر جلسة عقدها برلمان ألمانيا ، أن رئيس المجلس عند اعلان بدء الجلسة وقد كان يتمنى

أن يعطل المجلس لأنه كان يعرف أن الامبراطور يريد حمل الأعضاء على الموافقة على اعلان الحرب على فرنسا فقال : « يا حضرات الأعضاء المحترمين أعلن قفل الجلسة ، أقصد فتح الجلسة » وبهذه الزلة أرضى ضميره .

وكثيرا ما يحدث في شهادة الشهود عندما يفاجأ الشاهد بسؤال غير متوقع فيجيب على البديهة ثم يسرع في التوّ بتغيير الجواب . والجواب الأول أصدق بطبيعة الحال ، والعامة تقول — « كلمة الحق طلعت » .

والنوع الثاني من الحيل هو فلتات القلم — وهو يفوق فلتات اللسان أهمية لأنه حجة تسجل على الانسان بشعوره الباطن الخفي بخط يده . وتتمثل هذه الظاهرة العجيبة في أن يزل القلم فيكتب كلمة في غير موضعها أو يخطىء في هجائها وهو عليم بصحتها أو يضع اسما بدلا من اسم آخر ، أو يضيف كلمة ليس لها محل في الجملة أو يخطىء في الأرقام والتواريخ والعناوين . وفي كل ما نكتبه من خطابات ومذكرات وتقارير ومقالات أمثلة عملية كثيرة لهذه الفلتات ولكنا لا نفطن اليها ، واذا فطنا اليها صححناها ببساطة دون أن ندرك ما يقصده العقل الباطن بها . فالآنسة التي تحب أحد أقاربها ولسبب ما تكتم هذا الحب ويضيق العقل الباطن بهذا الكتمان ويكاد ينفجر فيحملها على أن تستهل خطابها الجاد له بعبارة « عزيزي حبيبي » بدلا من « عزيزي عفيفي » .

ويخطىء الناس في التأريخ فبعضهم مثلا يظل يؤرخ بالعام المنصرم رغم حلول العام الجديد . والبعض الآخر يستعجل العام فيؤرخ به قبل حلوله . وليس هذا سهوا أو اهمالا أو جهلا بالتاريخ وانما هو خطأ يتعمده العقل الباطن ليعبر به عن حكمه على العام الحاضر وما يرجوه في العام المقبل . فالشخص المطمئن الى عامه هذا ويرجو أن يستمر على ما هو عليه يظل يؤرخ به مدة طويلة حتى بعد انتهائه . أما الذي يضيق بعامه الحالي ويرجو الخير في العام المقبل فيستعجل الأمور ويؤرخ بالعام الجديد قبل حلوله . والشخص الذي يكلف بكتابة موضوع أو تقرير يشمل عدة فقرات أو بنود تتطلب ١ ، ٢ ، ٣ الخ أو أولا وثانيا وثالثا ، والعقل الباطن لا يرتاح اليه ويود الاسراع في انجازه يفلت القلم فيكتب (١٠) أو عاشرا بدلا من (٥) أو خامسا . والمتتبع لأخطاء الصحافة والكتب المطبوعة يجد فيها أخطاء كثيرة بعضها بعيد عن الموضوع وغير مفهوم وبعضها يثير الضحك ، ولكنا نمر عليها مر الكرام ونقول عنها ببساطة « أخطاء مطبعية » في حين أنها تكشف عن نفسية الكاتب أو جامع الحروف ورأيه الصريح في الموضوع . وقد نشرت احدى الصحف هذه الجملة « فلان يبحث عن السهرة عن طريق الاكلان » والاكلان في اللهجة المصرية هو حشرة البق ، وأصل العبارة يبحث عن الشهرة عن طريق الاعلان . ولو بحثنا حالة جامع الحروف لوجدنا الوصف ينطبق على حياته .

وفي هذا القبيل أخطاء القراءة ، فكثيرا ما يخطىء الانسان في قراءة كلمة ويراها فعلا كلمة أخرى وهو سليم النظر كامل الشعور والخط كبير واضح . فقد قرأت مرة كلمة مطعم — مكتوبة بخط كبير على لافتة فوق أحد المحلات فدخلت لتناول الطعام ، ولشدة دهشتي وجدت المكان مطبعة وليس مطعما كما قرأت فخجلت وطلبت طبع بعض البطاقات . وكثيرا ما يتجلى شعور الانسان الباطن نحو كتاب يقرؤه فيخطىء في قراءة أرقام الصفحات فان كان الكتاب طريفا شيقا بحيث لا يمل القارىء قراءته قرأ رقم ٩٥ على انها صفحة ٥٩ وبالعكس اذا كان الكتاب مملا يود أن ينتهي منه القارىء بأسرع ما يمكن . وفي الكتاب الممل قد يقرأ الانسان أواخر الجمل وأواخر السطور قبل أوائلها فاذا وصل الى هذا الحد من الخطأ في القراءة فيحسن به أن يقف قبل أن يقتله الملل وتتملكه السآمة . واتقاء لشر فلتات القلم يحسن كذلك أن يعيد الانسان قراءة ما يكتبه قبل اطلاع الغير عليه حتى لا تفلت منه كلمة تعبر ولو بطريقة غير مباشرة عن شعور أو رأي كان يجب أن يخفيه .

ومن أعجب حيل العقل الباطن للتخلص من المواقف والتصرفات التي لا يرتاح اليها ، ولكن العقل الظاهر يرغمه عليها لاعتبارات اجتماعية ، النسيان المفتعل . فالانسان ينسى دائما المواعيد التي يجب أن يسدد فيها ديونه والمبالغ المطلوبة منه ، ولا يذكر أين وضع الأوراق الخاصة بدفعها ، في حين انه قد يذكر دائما ما له من مبالغ وديون على الآخرين ويعرف مواعيدها بالضبط . وهو في الواقع لا يقصد التضليل ولا يدعي ضياع الأوراق ، وهو عليم بمكانها ، ولكن عقله الباطن يخفيها عنه في غفلة منه وينسيه موضعها ، كأنه يعز عليه أن يذهب عنه المال . ويفقد الانسان الهدايا التي قدمها له أقاربه وأصدقاؤه الى حين من غير أن يشعر وذلك عندما تتوتر العلاقة بينه وبينهم لسبب ما ، فاذا زال السبب وجد الشيء المفقود أمامه لفرط دهشته .

وقد يصل الانسان خطاب عن مسألة عاجلة يطلب منه قضاؤها فينسى ، واذا ذكر به بعد حين ، وهم بالرد عليه ، لم يجده في موضعه . واذا وجده وكتب الرد بالفعل نسي أن يرسله ، وقد يضع عليه طابع البريد ويلقي به في جيب معطفه أو درج مكتب ، ويبقى هناك الى أن يتذكر مرة أخرى أو يلحقه خطاب تذكير واستعجال . وقد يصل الأمر الى عدم كتابة العنوان على الظرف أو اسم المكان المرسل اليه أو يكتبه خطأ . وهذه حيل يحاول بها العقل الباطن أن يعطل الرد ان كان الانسان في قرارة نفسه يكره صاحب الخطاب أو لا يرتاح للقيام بالعمل الذي كلف به وبهذا يكون العقل الظاهر قد أدى واجبه بكتابة الخطاب وحقق العقل الباطن رغبته في التعطيل .

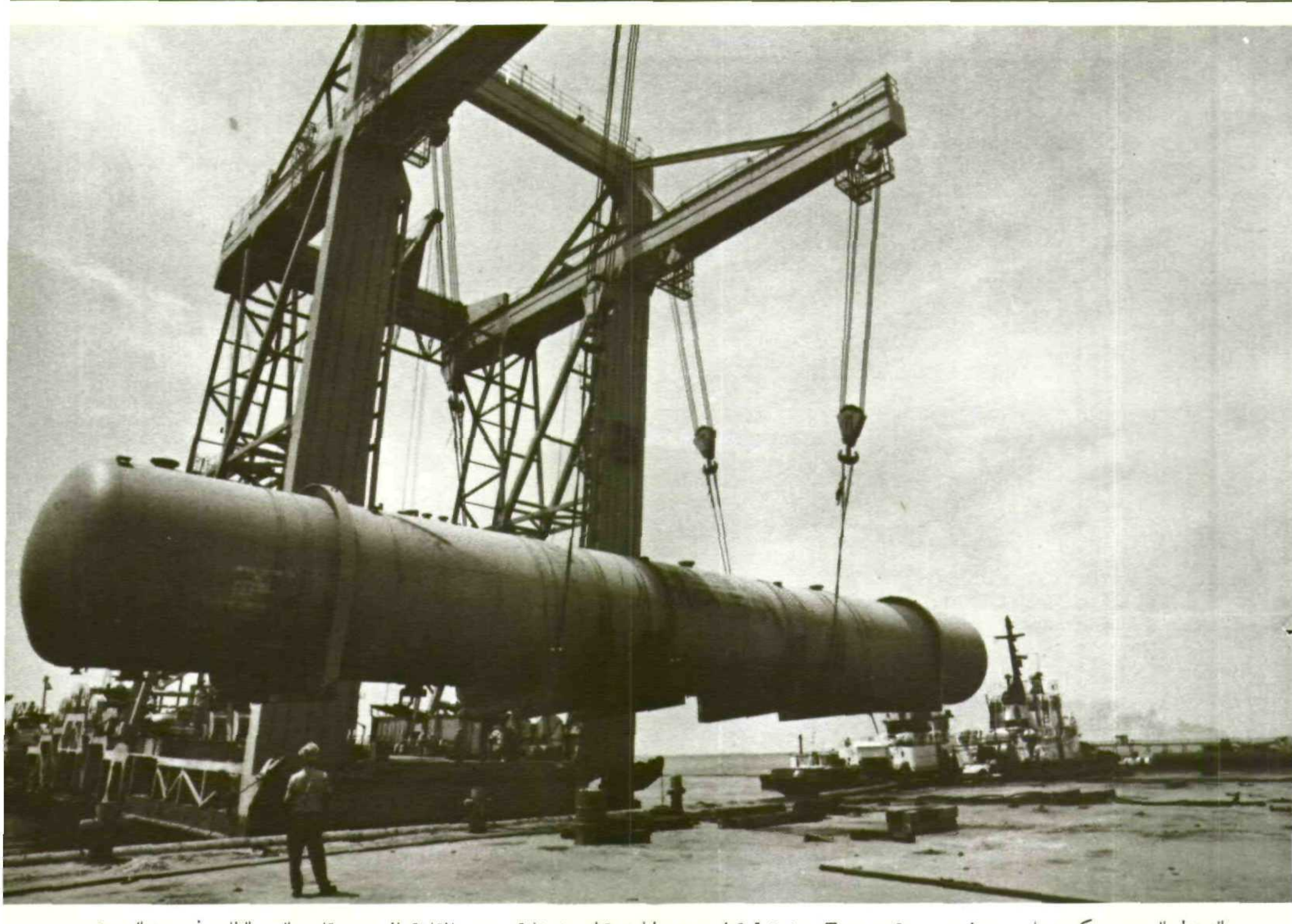
وقد يكون على موعد مهم مع أحد الناس لقضاء مهمة ضرورية وعلى الرغم من أهمية الموضوع فانه ينساه ولا يذكره الا بعد فواته أو يذهب اليه في غير اليوم أو المكان المحدد ، اذا كان لا يرتاح لصاحب الموعد أو يخشى نتيجة المقابلة أو على الأقل لا يطمئن ، ويبرئ العقل الظاهر نفسه ويلوم صاحبه على اخلاف الموعد ويستشهد ببعض من قابلوه في المكان ثم يبدي دهشته للخطأ ويعتذر ، وهكذا يرتاح كل من العقل الظاهر والعقل الباطن لما فعل . وكثيرا ما يركب الانسان وسيلة انتقال غير موصلة للمكان المقصود ، ويفعل هذا كثيرون من ذوي الأجر المحدود سهوا دون وعي في يوم صرف الأجور بدافع خوف العقل الباطن من المطالب المرهقة من الزوجة والأولاد والدائنين ، وبهذا يجد العقل الباطن مخرجا من الأزمة المنتظرة ولو بارجائها مؤقتا .

وكل هذه في الواقع فلتات أو هفوات قد تبدو لنا بسيطة عادية قليلة الخطر ولكنه يترتب عليها أحيانا نتائج سيئة وأقل ما فيها انها مقياس صحيح لشعورنا الباطن وعلاقاتنا الخفية بالأشخاص الذين تربطنا بهم هذه الأمور ، فعلينا أن نلاحظ أنفسنا وندرس هفواتنا وزلاتنا ، وأن نحاول ادراك المعنى والهدف الكامن وراء السلوك الظاهر لنعرف حقيقة مشاعرنا ونصفي نفوسنا ونصلح علاقاتنا بالناس حتى نتجنب على قدر المستطاع ألاعيب العقل الباطن وحيله ■

أحد قوارب الجر التابعة لأرامكو يساعد في ارساء ناقلة عملاقة في المرسى المحدد لها .



الى الشمال من جبل الظهران ، وعلى لسان يمتد في مياه الخليج العربي نحو ١٥ كيلومترا في اتجاه الجنوب الشرقي ، يربض ميناء بحري نشط يحتضن أضخم أسطول من قوارب العمل في الشرق الأوسط ، التي تختلف قطعه نوعا وحجما وقوة تبعا للمهام المنوطة بها . وتؤمه الناقلات العملاقة من كل حدب وصوب لتحمل زيت المملكة العربية السعودية ومشتقاته المختلفة ميممة شطر مراكز التسويق العالمية وفق مخطط منسق دقيق .



الصندل البحري « كوين ماري » يرفع « مصيدة – Trap » ضخمة تزن ٢٥٠ طنا ، وتظهر ضخامة حجمه بالمقارنة الى حجم قارب الجر الظاهر في يمين الصورة .

إذا ما أدرنا عقارب الزمن الى نحو ٤٠ سنة خلت ، وجدنا أن القوارب ذات الأشرعة المثلثة كانت السائدة في مياه الخليج العربي . وقد أقل أحدها الرعيل الأول من الجيولوجيين من البحرين ورسا بهم في قرية « الجبيل » الواقعة على الساحل الشرقي للمملكة العربية السعودية . أولئك الجيولوجيون ، التابعون لشركة « كازوك » سابقا ، شركة الزيت العربية الأميركية « أرامكو » حاليا ، كان يحدوهم الأمل في احتمال وجود الزيت في هذه المنطقة التي لا تبعد كثيرا عن البحرين التي اكتشف فيها الزيت من قبل . وقد عزز ذلك الاحتمال وقوعهما في منطقة جيولوجية واحدة وتشابه طبيعة أرضهما الى حد بعيد .

كانت تلك القوارب الشراعية تستخدم في نقل المواد الغذائية ومعدات التنقيب والحفر من البحرين الى « الجبيل » ، لتتولى نقلها فيما بعد سفن الصحراء « الابل » الى فرق الجيولوجيين العاملة في أماكن مختلفة من المنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية .

وفي عام ١٩٣٨ ، وبعد نحو خمس سنوات من الجهد والبحث والتنقيب شاء الله أن يتدفق الذهب الأسود من ينابيعه ، وينفجر من مكامنه حاملا معه بشائر الخير والبركة لهذه البقعة من الأرض . ولم تمض بضع سنوات على اكتشاف الزيت حتى بدأت طلائع السفن تفد الى المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية من مختلف أنحاء العالم ليحمل بعضها الذهب الأسود من ميناء رأس تنورة البحري ، وليفرغ البعض الآخر حمولاته من السلع والبضائع في ميناء الدمام لسد حاجات المنطقة التي بدأت الحياة تدب فيها نتيجة لتوسع صناعة الزيت التي أخذت تزدهر تدريجيا وتتطور بسرعة مذهلة .

ولما لم يكن آنذاك على هذا الساحل الشرقي من المملكة العربية السعودية موانيء تصلح لاستقبال السفن ، راح الجيولوجيون والمهندسون منذ أواخر عام ١٩٣٤ ينظرون في أمر اختيار موقع مناسب لاقامة فرضة بحرية عليه . فقاموا بأخذ صور جوية ورسم خرائط طبوغرافية للأماكن المناسبة لهذا الغرض . وقد تعددت الآراء حول هذا الموضوع الى أن استقر الرأي على رأس تنورة لتكون ميناء بحريا لشحن الزيت الخام .

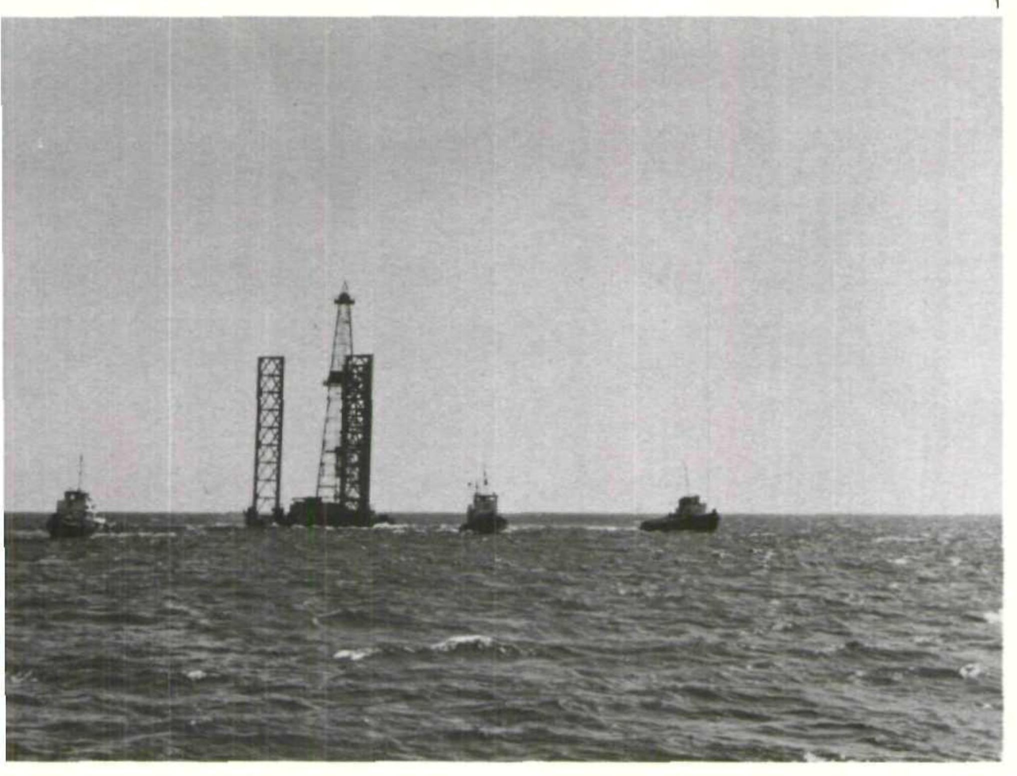
بدأ العمل في انشاء فرضة في الجهة الغربية من ميناء رأس تنورة البحري في شهر أكتوبر عام ١٩٣٨م الى امتداد ١٥٠ قدما ، ثم زيدت فيما بعد حتى أصبح طولها ٣٠٠ قدم . وكانت أول ناقلة زيت تؤم هذه الفرضة البحرية هي « د . ج . سكوفيلد » التابعة لشركة ستاندرد كاليفورنيا للزيت وذلك في مطلع مايو ١٩٣٩ . وقد جرى شحنها بالزيت وسط احتفال كبير ، شهده المغفور له جلالة الملك الراحل عبد العزيز آل سعود . وتستخدم الفرضة الغربية من الميناء البحري في رأس تنورة الآن لتزويد مراكب « أرامكو » بالوقود ، بالاضافة الى كونها مركزا لحركة الصنادل وقوارب الجر والسحب المختلفة التابعة لها .

وفي عام ١٩٤٤ قامت أرامكو بانشاء فرضة جنوبية في ميناء رأس تنورة لاستقبال ناقلات الزيت المتوسطة الحجم. ويتراوح عمق الماء في هذه الفرضة بين ٣٠ و ٣٥ قدما ، وهي تضم أربعة مراس . وقد كانت عملية تعبئة الناقلات بالزيت الخام ومنتجاته آنذاك تتم بواسطة خراطيم ضخمة .

وفي عام ١٩٤٨ أصبحت الحاجة ماسة لبناء فرضة أخرى لمواجهة الطلب المتزايد على الزيت . فشرع في انشاء فرضة شمالية يضم رصيفها ستة مراس مزودة بأذرع خاصة تعرف باسم « شكسان » لتعبئة الناقلات. ومن هذه الفرضة تشحن الناقلات بالزيت الخام وزيت الوقود والديزل والنفثا ووقود النفاثات وغاز البترول السائل . ويتراوح عمق الماء في هذه الفرضة بين ٤٥ و ٥٠ قدما . وعلى الرصيف توجد غرفة للعدادات ، ومقاييس للضغط ، وصمامات يتحكم المسؤولون بواسطتها في تحميل كميات الزيت أو منتجاته المطلوب ضخها الى خزانات الناقلات .

ومع بدء ظهور ناقلات الزيت الضخمة التي تربو حمولتها على ١٥٠٠٠٠ طن بنت « أرامكو » عام ١٩٦٤م جزيرة اصطناعية على بعد كيلومترين من الفرضة الشمالية من ميناء رأس تنورة البحري في مياه يبلغ عمقها نحو ٨٥ قدما . ويبلغ طول هذه الجزيرة ١١٧٧ مترا ، وتضم ستة مراس . وتمتد الى هذه الجزيرة أربعة خطوط أنابيب من ساحة الخزانات تتراوح أقطارها بين ٣٢ و ٤٢ بوصة ، وهناك خط أنابيب آخر لتزويد الناقلات بزيت الوقود اللازم لها . ويتم الانتقال بين الفرضة والجزيرة بواسطة زوارق تعرف لدى مستخدميها باسم « تكسي الجزيرة الاصطناعية ».

١



١ – ثلاثة قوارب جر تقوم بسحب منصة الحفر البحرية رقم – ١ ونقلها الى موقع آخر للبدء في عملية حفر بئر جديدة في المنطقة المغمورة بالمياه .

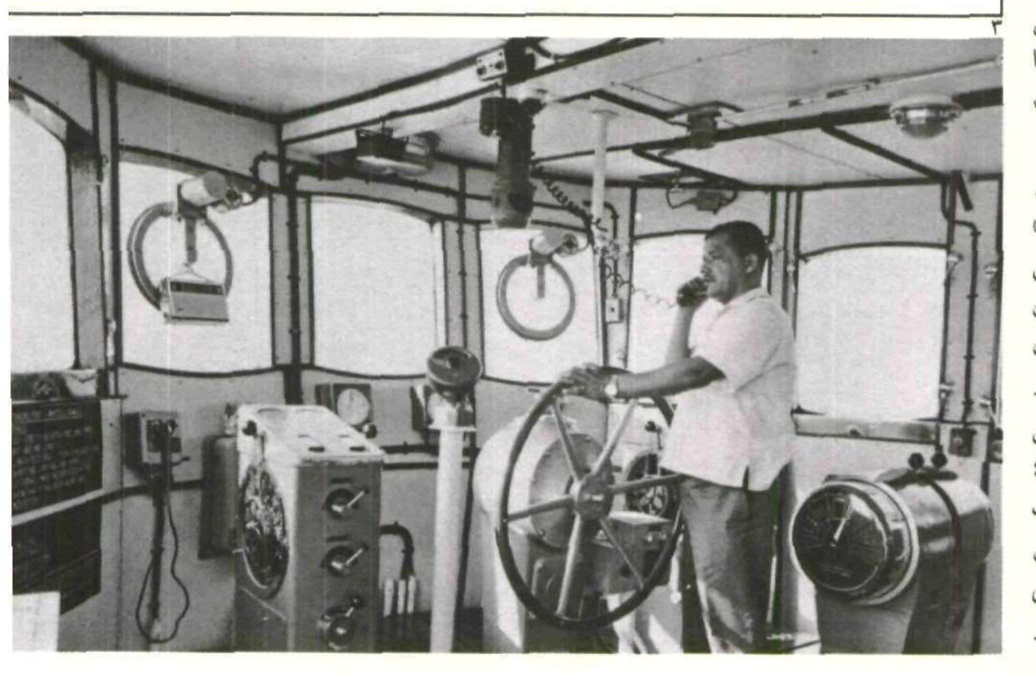
٢ – ملاحو أحد قوارب الجر وهم منهمكون في عملية ربط احدى ناقلات الزيت لدى رسوها في الميناء .

٣ – تزود قوارب الجر بأجهزة اتصال لاسلكي حديثة ، ويبدو هنا أحد مرشدي السفن يقوم بالاتصال باحدى الناقلات المرتقب وصولها الى ميناء رأس تنورة .

٤ – المرشد أحمد القديسي وهو يصعد الى سدة ناقلة زيت في طريقها الى الجزيرة الاصطناعية ليتولى قيادتها وارساءها في المرسى المعين لها .

٥ – يستعين هذا القبطان السعودي بجهاز الرادار المزود به قاربه للتأكد من مدى سلامة الأحوال الجوية لتأمين وصول الناقلات الى الميناء .

٣



٢



وجدير بالذكر أن الجزيرة الاصطناعية تضم مرافق كاملة للسكن تستعمل في حالات الطوارىء وفي الظروف الجوية السيئة .

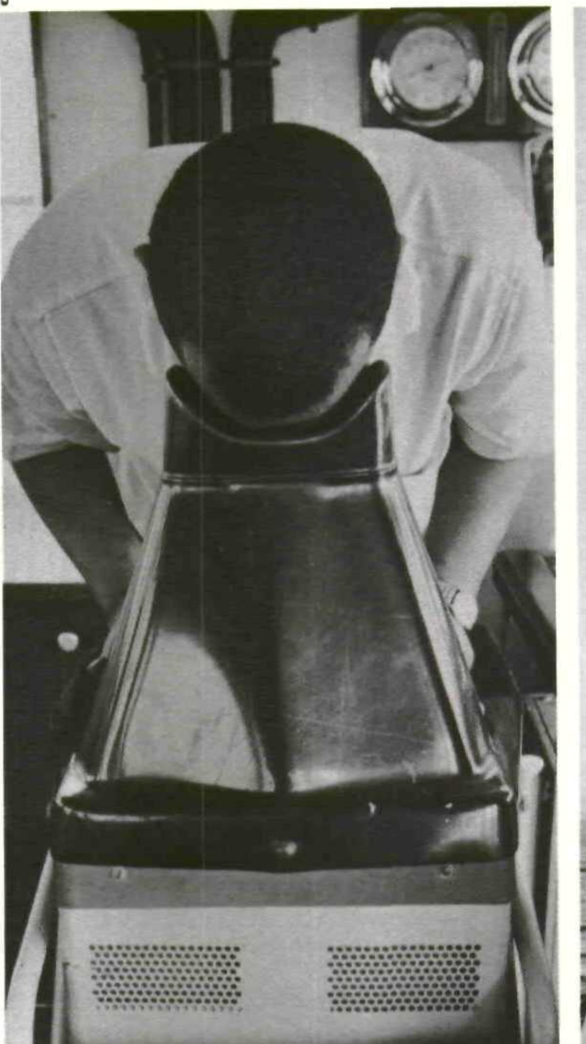
ومع التوسع في أعمال الحفر في المناطق المغمورة انحسر عالم القوارب الشراعية تدريجيا .. فالمعدات الضخمة وأجهزة الحفر الثقيلة تتطلب صنادل ضخمة لنقلها من مكان الى آخر . كذلك تحتاج ناقلات الزيت ، التي تقصد ميناء رأس تنورة ، الى قوارب جر قوية تساعد على ادخالها في المراسي المخصصة واخراجها منها . وهكذا توفر في رأس تنورة عدد من الزوارق والصنادل وقوارب السحب التي تستخدم في أغراض شتى . وقد بلغ عدد المراكب التي استخدمتها الشركة منذ بدأت أعمالها ٧٦ مركبا . ولديها الآن ١٣ زورقا ، و ٦ قوارب للسحب ، وقاربان للتموين وأربعة صنادل ومعظمها مصمم بحيث يمكن تحويلها واستخدامها في الأعمال المختلفة التي تتطلبها عملية تصدير الزيت وعمليات الانتاج من المنطقة المغمورة التي تزداد بشكل مطرد .

فالزوارق تستعمل لنقل الموظفين الى الجزيرة الاصطناعية والى منصات الحفر البحرية والى معمل فرز الغاز من الزيت في منطقة السفانية ، وكذلك الى مواقع أعمال المسح البحري وخدمات صيانة آبار الزيت المغمورة بالمياه ، بالاضافة الى مساعدة رجال الغوص ، ونقل مرشدي السفن الى الناقلات واعادتهم منها الى الفرضة . والجدير بالذكر أن هذه الزوارق مجهزة بأدوات حديثة للملاحة وأجهزة الاتصال اللاسلكي ، وهي تتسع لثلاثين راكبا تقريبا . وتتراوح قوة محركاتها بين ٣٣٠ و ١٢٠٠ حصان ميكانيكي ، وسرعتها بين ٨ و ٢٢ ميلا بحريا في الساعة .

أما قوارب الجر فيقتصر استخدامها على عمليات ارساء الناقلات واخراجها من مراسيها ، وعلى قطر منصات الحفر من موقع الى آخر ضمن المياه الاقليمية للمملكة العربية السعودية في الخليج العربي . ويتراوح قوة هذه القوارب بين ١٥٠٠ و ٤٠٠٠ حصان ميكانيكي . هذا وقد أضيف الى اسطول قوارب الجر مؤخرا قارب قوته ٤٠٠٠ حصان ليساعد في عملية ارساء الناقلات التي يتراوح معدل حمولتها الساكنة بين ١٥٠٠٠٠ و ٣٠٠٠٠٠ طن واخراجها منها .

أما قاربا التموين فيستخدمان في تزويد العاملين على منصات الحفر البحرية والجزيرة

٥



٤



الناقلة الضخمة « يالطا » أثناء ارسائها في الجزيرة الاصطناعية برأس تنورة بمساعدة قاربي الجر « بقيق-٤ » و « بقيق - ٦ » .



قارب جر يتجه لاداء مهمة منوطة به ، والجدير بالذكر أن قباطنة قوارب الجر جميعهم من العرب السعوديين .

ناقلات الزيت تحمل زيت المملكة العربية السعودية من الفرضة الشمالية لميناء رأس تنورة البحري الى الأسواق العالمية .

الاصطناعية ومعمل فرز الغاز من الزيت في السفانية بالماء الصالح للشرب والماء العادي، والأطعمة والديزل ، وقطع الغيار الصغيرة ، والمعدات المختلفة . وتبلغ سرعة الواحد منهما نحو ١٢ ميلا بحريا .

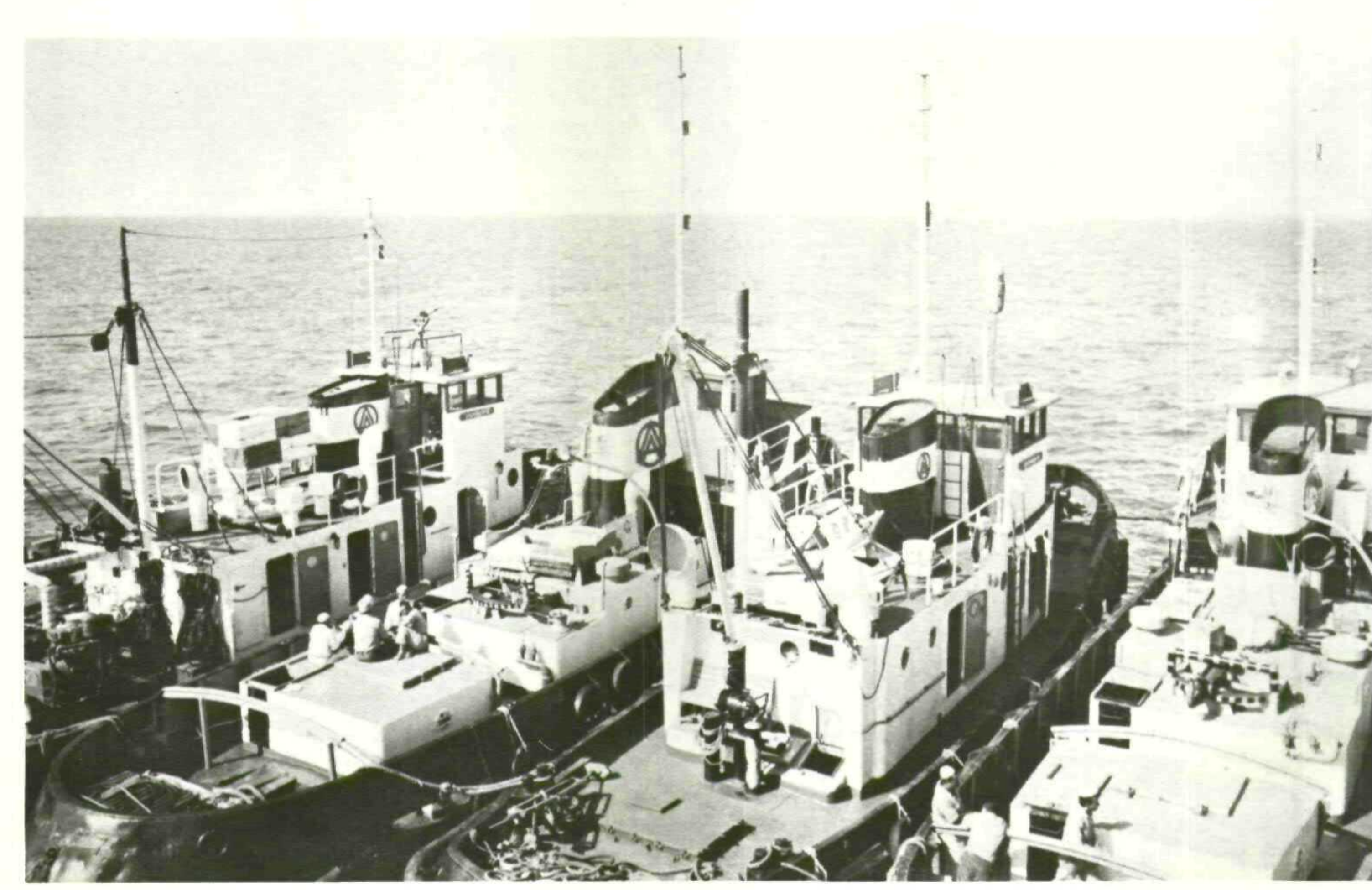
أما الصنادل فتستعمل لنقل أجهزة الحفر في المناطق المغمورة ، ونقل معدات الحفر الثقيلة ، كأنابيب التغليف والاسمنت وطين الحفر والمواد الكيماوية . كما أنها تستخدم لمد خطوط الأنابيب في المناطق المغمورة بالمياه . وأضخم هذه الصنادل حجما هو « كوين ماري » الذي يتألف طاقمه من قبطان وأربعة عشر بحارا ، ويبلغ عمق غاطسه نحو ثمانية أقدام ، وطوله ٢٥٢ قدما وعرضه ٧٢ قدما . ويحتاج هذا الصندل الى قاربين أو ثلاثة لسحبه الى مناطق العمل المخصصة له . ومما يزيد في أهميته أنه مزود في مؤخرته برافعة يبلغ علوها ١٣٠ قدما ، وطاقتها ٢٥٠ طنا . وهي تستخدم في الحفر واصلاح الآبار ومد خطوط الأنابيب . الا أن عملها الرئيسي ينحصر في رفع الأحمال الثقيلة ، وكثيرا ما يستعان بها في انتشال الزوارق أو قوارب الجر وانزالها على الرصيف لاجراء أعمال الصيانة اللازمة لها .

وبالاضافة الى الأجهزة والمعدات الثقيلة المزود بها هذا الصندل فانه يضم مرافق سكنية وقاعات للطعام ومطابخ وغرف ألعاب ومكتبة وصالة لعرض الأفلام ، ويتسع لـ ١٤٠ شخصا . وجدير بالذكر أن محرك هذا الصندل يولد طاقة كهربائية كبيرة .. فقد حدث منذ سنوات أن تعطلت المولدات الكهربائية في حي السكن في السفانية ، فرسا الصندل على الشاطىء وبدأ يمد الحي بالكهرباء مدة ٤٠ يوما ليل نهار ، الى أن تم اصلاح المولد المعطوب واعادته الى حالته الطبيعية .

وتقديرا للمسؤولية الضخمة التي تتطلبها عملية ارشاد السفن والناقلات العملاقة ، وهي عملية دقيقة تحتاج الى مهارة وخبرة ، فان شركة الزيت العربية الأمريكية تبعث بين الحين والآخر بعضا من موظفيها السعوديين في دورات تدريبية الى الولايات المتحدة الأمريكية يتلقون خلالها دروسا في كيفية استخدام أجهزة الرادار والمعدات البحرية ، بالاضافة الى التدريب العملي ■

تصوير : شيخ أمين

سليمان نصر الله



قوارب الجر والارشاد تكون دائما رهن اشارة المسؤولين في قسم النقل البحري بميناء رأس تنورة .

النظامي الكنجوي ومجنون ليلى

بقلم الاستاذ نجاتي صدقي

لقد عالج قصة مجنون ليلى عدد من شعراء اللغتين الفارسية والتركية القدامى ، واتخذوها مادة طيعة لاظهار كل ما يملكون من بيان وبلاغة ، وحسن تعبير وتصوير ، وكان أول من وضع القصة بالفارسية هو النظامي الكنجوي ، ثم تبعه مقلدا عبد الرحمن الجامي المتوفى سنة ٨٩٨هـ ، ومير عليشير نوائي المتوفى سنة ٩٠٦ وغيرهما ..

النظامي الكنجوي

ولد النظامي في « كنجة – Canjah » سنة ٥٣٥هـ وتوفي سنة ٥٩٩هـ (١١٤١ – ١٢٠٢م) ، وكانت مدينة كنجة وقتئذ تابعة لفارس . وحين احتل الروس تلك الأصقاع سنة ١٨٠٤ جعلوا اسمها اليزابيت بول (Elisabetpol) تخليدا لذكرى « اليزابيت بتروفنا » ابنة بطرس الأكبر ، وحين اندلعت ثورة ١٩١٧ الروسية وبلغت أجزاء الامبراطورية الروسية الشرقية ، قامت على الأثر هناك جمهوريات جديدة منها جمهورية اذربيجان ، وكانت مدينة اليزابيت بول أو كنجة من أعمالها ، فتغير اسمها الى « كيروفاباد » تخليدا لذكرى سرجي كيروف (Sergey Kirov) أحد كبار المسؤولين في لننغراد .

واسم النظامي الكامل هو نظام الدين أبو محمد الياس بن يوسف الكنجوي . وهو شاعر عظيم ، ووصاف مبدع ، وقاص مجيد ، له أحد عشر مؤلفا منها « ليلى ومجنون » نظمها سنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م) ، بطلب من الأمير شيروان حاكم آخستان ابن منوجهر الفارسي ، وطبعت في طهران سنة ١٣١٥هـ (١٨٩٦م) .

ولم أقع على ترجمة عربية شعرية لمنظومة النظامي في مجنون ليلى ، باستثناء ترجمة فقرات نثرية وردت في كتاب « نظامي الكنجوي » للدكتور عبد المنعم حسنين ، وترجمة صفحة واحدة منها وردت في كتاب « تاريخ الأدب في ايران » للمستشرق ادوارد جرانفيل براون (Edward Qranville Browne) نقله الى العربية الدكتور ابراهيم الشواربي ، الا أن المصادر الأذربيجانية المترجمة الى الروسية ، وكتاب « النظامي الشاعر الأذربيجاني العظيم » للمستشرق الروسي أفيجني ادوارد وفيتش برتلس (Edward Ovich Berte is) ، قدمت للقراء معلومات ضافية عن النظامي وحياته وشعره ، أما ترجمة منظومة « ليلى ومجنون » الكاملة للنظامي فقد عثرت عليها في كتاب بالانكليزية للمستشرق الانكليزي جيمس اتكينسون (James Atkinson) .

أول ترجمة انكليزية لـ « ليلى والمجنون »

نشرت هذه الترجمة الشعرية في لندن سنة ١٨٣٦ ، وهي لا تقل في قوتها ودقتها عن ترجمة « فيز جيرالد » لرباعيات الخيام ، وناظمها بالانكليزية هو طبيب ومؤلف ، وشاعر ، ومترجم ، ورسام ، عمل في خدمة شركة الهند الشرقية طبيبا وجراحا سنة ١٨٠٥ ، وهو يجيد الهندية والفارسية ، وله ترجمات ومؤلفات عديدة .

وقد استند في عمله الأدبي هذا الى مخطوطة فارسية نادرة يرجع تاريخها الى سنة ٩٧١هـ (١٦٥٣م) ومزينة بطريقة هندية نفيسة .

وقد تولى ابنه جيمس اتكنسون ، اعادة طبع منظومة والده سنة ١٨٩٤ ، وهو يقول في المخطوطة الفارسية انها مقسمة حسب الفصول التالية :

* والد المجنون يتوجه به الى الكعبة .
* ليلى في غياض النخيل .
* نوفل يهاجم قبيلة ليلى ، والمجنون يلقي الحجارة على جيوش نوفل .
* المجنون ينقذ الوعل من الصياد .
* زواج ليلى من ابن سلام .
* المجنون يصادق الوحوش .
* سلطان مرو يلقي الشاب وهو مقيد اليدين والقدمين الى الكلاب ، وهذه لا تؤذيه .
* سليم – ناقل اشعار المجنون – يتحدث اليه .
* المجنون يموت عند قبر ليلى .

وتستهل منظومة النظامي بمقدمة صوفية ، وتقع في ١٢٢ صفحة من الحرف الصغير .

الرواية العربية لمجنون ليلى

تذكر بعض مصادر الأدب العربي أن مجنون ليلى شخص حقيقي ، وترد تاريخ وفاته الى سنة ٧٠هـ (٦٨٩م) وتحدد نسبه فتقول هو قيس بن الملوح ابن مزاحم بن عدس بن ربيعة بن جعدة بن كعب ابن عامر بن صعصعة ، في حين أن كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصفهاني يشير الى أن المؤرخ ابن الكلبي ، أي هشام بن محمد الكلبي ، يقول أن قيس بن الملوح شخص وهمي ، وهو نسيج خيال فتى من بني أمية كان يهوى ابنة عم له ، وقد بث في مجنون ليلى قصة عشقه الذاتية .

ومهما كان الأمر فان قصة مجنون ليلى هي تراث أدبي رائع اشترك فيه غير أديب وشاعر ، وصالت فيه وجالت غير مخيلة ، وهو يأتي في طليعة الروايات الشعرية ، ودرة في تاج القصص الرومانسية ، وأصبح مصدر وحي لكثير من شعراء المسلمين والفرنجة .

فالرواية العربية لمجنون ليلى هي مجموعة حوادث مجزأة ، ومشاهد منفردة ، تروى على ألسنة عدد كبير من الشعراء والرواة والمحدثين ، لكنها تؤلف كلها وحدة روائية ، ونلخصها بهذه الفقرات للوصول الى منظومة النظامي :

– ميلاد الحب بين قيس ابن الملوح وليلى العامرية في سني الطفولة ، ويذكر عادة أنهما كانا يرعيان الابل معا عند جبل التوباد .

– محاولة والد قيس انقاذ ابنه المحب بتحقيق أمنيته ، الا أن والد ليلى يرفض زف ابنته الى قيس لأن الفتى يسلك مسلكا لا يليق بليلى وقبيلتها .

– تهدئة خاطر قيس ورحلته الى مكة المكرمة ، ودعاؤه عند ستار الكعبة لبقاء حبه لليلى قويا ثابتا .

– هرب المجنون وهو في طريق عودته من مكة ، وتشرده في هضاب نجد .

– التقاء المجنون بنوفل بن مساحق ، ومحاولة هذا اقناع والد ليلى ، دون اللجوء الى القوة ، بضرورة زف ابنته الى قيس .

– جنون قيس ، وتشرده في الصحاري والقفار ، هذا الجزء من الرواية زاه ، ويتضمن مشاهد متعددة مثل اقدام قيس على اطلاق سراح الغزلان ، وحديث المجنون الى الغراب ، وغير ذلك .

– زواج ليلى من ورد بن محمد العقيلي ، أحد فتيان بني ثقيف ، ولقاء المجنون بهذا الفتى .

– حياة المجنون في الصحراء ، ومجيء محبي الشعر اليه لسماع أشعاره وتدوينها .

– موت المجنون . وهذه النهاية لم تأخذ شكلا معينا ، فبعض المصادر يقول أن أهله وجدوه ميتا في كهف ، وغيره يقول ان قيسا مات على قبر ليلى ،



وفي هذه الحالة بات غير معروف من الذي سبق الثاني الى الموت أهو قيس أم ليلى ؟..

ولم يبد واضعو قصة قيس وليلى اهتمامـا كبيرا في حبكتها القصصيـة ، فالمجنون يعنيهم بالمرتبة الاولى بوصفه شاعرا له مكانة كبرى في نفوسهم .. أما الحكايات التي قيلت في المجنون فالقصد منها القاء ضوء على بعض أشعاره ، أو الاشارة الى المناسبات التي قالها فيها . ويكون دور ليلى في هذا المجال ثانويا ، فهي مجرد سبب لظهور هذه القصيـدة او تلك ، فالبطل الحقيقي في القصة هو المجنون ذاته .

النظامي الكنجوي ومجنون ليلى

يروي النظامي أنه لم يتحمس كثيرا لنظم قصة مجنون ليلى في بادىء الأمر ، غير أن ابنه محمدا ، وكان لـه من العمر أربعة عشر عاما ، استطاع أن يقنعه بضرورة نظمها ، لأنها تستهوي قلب كل فتى وفتاة ، فانصاع النظامي لرغبة ابنه ، ولم تمض أربعة أشهر حتى كان قد أتمها ، وهي تقع في أربعة آلاف بيت من الشعر .

ولا يذكر النظامي المصادر التي استند اليها في نظم « ليلى والمجنون » بالفارسية ، والمظنون انها مخطوطات مبعثرة ، أو روايات يرددها الناس ، ومع ذلك فان ليلى والمجنون الفارسية تتفق ومجنون ليلى العربية من الناحية القصصية الرومانسية ، لكنها تختلف والرواية العربية في الجوهر ، فالنظامي صب فيها فلسفة صوفية معينة ، ولم يروها مجرد قصة حب .

تبدأ القصة عند النظامي بأن والد قيس رجل ثري ذائع الصيت ، لم ينجب أطفالا ، فيتوجه الى الله بالدعاء أن يرزقه صبيا فيرزقه قيسا . ثم يأتي فصل نشأة الحب ، وهنا ينحرف النظامي قليلا عن صلب الرواية العربية ويدعي أن حب المجنون لليلى لم ينشأ ابان رعيهما للابل عند جبل التوباد ، وانما على مقاعد الدراسة حيث كانا ينتهلان العلم معا ..

ويرجع السبب في هذا الانحراف الى أن النظامي قد زين مشاهد الحياة القبلية العربية القديمة ، فجعل أولياء المحبين من الوجهاء الأثرياء ، وأصحاب النفوذ والسلطان ، فانقلبت عنده حياة قبيلة قيس وليلى من بدوية راحلة الى بدوية مجازية .

ويتبع ذلك فصل خاص بفشل الخطبة ، فوالد ليلى يريد لها زوجا من الحكام الأثرياء .. في شخص رجل اسمه « ابن سلام » ، وهو اسم لم يرد ذكره في المصادر العربية .

ويلي ذلك فصل نوفل بن مساحق فيتحول عند النظامي من رجل يجمع الصدقات للسلطان ، الى قائد خطير تطأطىء لـه القبائل العربية هاماتها ، واذ يفشل نوفل في المفاوضات السلمية لزف ليلى الى قيس ، يلجأ الى السلاح وفيه الحراب ، والدروع ، والخوذ الفولاذية – ويشتبك مع قبيلة ليلى بمعركة طاحنة ..

ويقول النص الانكليزي لهذا المشهد بما ترجمته :

« وامتشق نوفـل حسامـه الدمشقي البتار ..
وجنـد للمعركـة الرهيبـة كل بطل مغـوار
واندفـع بهـم عبر الصحراء خفـافـا ..
وهـم من كأس المنيـة يبغـون ارتشافـا
وأوفد نوفل رسولا يطلب منهم بلهجة المقتدر المالك ..
أن يقبلـوا بـزف الفتـاة الى قيس المتهالك ..
وما ان جـاء الـرد برفض قيس المجنـون
حتى صاح نوفل : الويل لكم وستندمون على ما تفعلون.

وخسر نوفل الجولة الأولى ، ثم عاد وحشد قواته وشنها حربا شعواء على قبيلة ليلى فأذلها وكسر شوكتها . وهنا يشعر المرء أن المأساة تقترب من نهايتها ، غير أن تهديد والد ليلى بقتلها ان هي خالفت أمره يحطم هذه النهاية ، ويبلغ المجنون الخطر الذي يهدد حياة ليلى . فيتوجه الى معسكر نوفل ويتوسل اليه أن يوقف رحى القتال .

ومن الجلي أن هذا الفصل غير وارد في النص العربي ، وقد أدرجه النظامي بقصد تقريب القصة من الشعر الرومانسي الفارسي للقرن العاشر للميلاد .. وكان لا بد له من سرد وصف المعارك وهو عمل أساسي كانت تمتهنه الأرستقراطية الفارسية فـي ذلك العصر .

وعلى ذلك انطلق النظامي في توسيع منظومته مستعينا بكل الروايات العربية المجزأة وجمعها في وحـدة كاملة . وقد بلغ القمة فيها حين تحدث عن مجيء المجنون الى ديار ليلى وهو يجر قيوده دلالة على يأسه وقنوطه ، ثم اقدامه على تحطيم هذه القيود دلالة على أن المجتمع البشري بات لا يشده اليه .

ويصف النظامي زفاف ليلى الى ابن سلام بتفصيل يتعدى الرواية العربية ، وهو يتضمن واقعا له أهميته .

فليلى هنا تذعن من جهة لارادة والدها مكرهة ، وتنبىء عن غمها خفية ، لكنها تدافع من جهة أخرى عن عفتها بحزم ، فيتخلى الزوج عن كل محاولة للاقتراب منها .. ثم يموت الزوج ابن سلام كنتيجة لرغبة لم تتحقق .

ويتراءى لليلى أن جميع العقبات قد انهارت في سبيل الحل السعيد ، الا أن هذه النتيجة جاءت متأخرة ، فالحب أصبح روحيا ، والسعادة الأرضية باتت مستحيلة .

وفي هذه المعالجة للموضوع أثر واضح للصوفية ، فليلى تعيش لروحها فقط ، والمجنون يظهر في دور انسان استطاع أن يتغلب على رغباته الجسمانية .

وتختتم قصيدة « ليلى ومجنون » للنظامي بفصول عن موت ليلى ، بعد أن غدت حياتها لا هدف لها ، ويتبع ذلك هلاك البطل نفسه ، ولقاء رفات الحبيبين التعيسين في ضريح واحد .

كان النظامي يبدي اهتماما عظيما بصدد الروايات العربية المتعلقة بمجنون ليلى ، وهو يستفيد أحيانا من أدق تفاصيلها ، ويحافظ على الأرث التاريخي الأدبي للرواية ، الذي يصف المجنون كشاعر ، ويبدي عناية فائقة في كيفية نقل هذا الارث الى اللغة الفارسية .

فالنظامي خطا خطوة حازمة في قصة مجنون ليلى ، فقد صنع من الحكايات المجزأة وحدة قصصية كاملة المعالم ، فبدت وكأنها نمت عضويا ، ثم انه قدم شكلا لدراسة سيكولوجية لتنامي رغبة لا تلين لها قناة .. فالحقيقة عنده موشاة بروح صوفية .

فالشاعر الفارسي يعرض على القارىء لونين من السيادة الأبوية ، فمن ناحية والد المجنون الذي يهيم حبا بابنه ، ويحذره من المصير الذي سيؤول اليه ، ويبدي استعداده المطلق لتحقيق رغباته ، ومن ناحية أخرى والد ليلى ، النفعي ، الذي لا يأخذ بالاعتبار مصلحة ابنته .

وقد رسم النظامي شخصية ليلى بجلاء أكثر مما رسمته الرواية العربية ، وهي تبدو في القصة كلها ، باستثناء الفصل الخاص بزواجها ، منفعلة . وقد أظهر النظامي ليلى محرومة من الحقوق بما يتعدى واقع الأسرة البدوية ، ولعله كان يرسم في ذلك واقع المرأة الفارسية في أيامه .

ثم ينهي النظامي منظومته حسب ترجمة «اتكنسون» بأبيات يغلب عليها طابع الصوفية ■



بقلم الاستاذ عبدالله حشيمة

من لم يسمع بحاتم الطائي ، الذي كان وما يزال مضرب مثل في الكرم ، وعنوان الاستجابة لكل ما فيه طيب الأثر ؟! كان لا يحسب من عمره ليلة لا ينزل فيها عليه ضيف ، وهذا ما حمله على القول ذات مساء لغلامه :

– أوقد النار ، يا غلام .

أوقد فان الليل ليل قر
والريح يا موقد ريح صر
عسى يرى نارك من يمر
وان جلبت ضيفا فأنت حر

ولم يعجب امرأته قوله الذي لا يدل على الاسراف بالمال فحسب ، بل كان يهدد البيت العائلي بالفقر ، فقالت له :

– عجبا لأمرك ، يا حاتم .. تقري وتعطي كل طارق وسائل ، وكأنك تعيش ليومك دون غدك ، أو كأن لا عيال لك هم أولى من الغير بمالك .

قال الرجل العنيد في كرمه :

– أقلي اللوم ، يا ماوية .. لقد – والله – وجدت الكرم خيرا من البخل ، وحسن الذكر أولى بأن يورثه المرء بنيه ، ولا خير في مال يمضي صاحبه من الدنيا ، ويترك أداة لسوء الثناء من بعده .

وما أنهى قوله حتى نبح كلب البيت في البعد ، فقالت المرأة :

– نبح كلبك ، فابشر .

قال متهللا :

– ما ارتاحت نفسي يوما ارتياحها الى مثل هذه البشرى .. ولعل طارقنا ذو حاجة ، ويأبى الله أن يذوق الغمض جفني ، ولما أقضي حاجة لطارق .

وأقبل الغلام مبشرا :

– ضيف يا سيدي .

قال حاتم ، ووجهه مشرق ارتياحا :

– الي به ، وأنت حر .

وجاء الضيف ، فاستقبله بالحفاوة التي تعود استقبال ضيوفه بها ، قال :

– رحبت بك الدار ، ممن أنت ؟

قال الرجل :

– من البراعم ، واليك قصدي وحاجتي .

قال حاتم :

– حاجتك مقضية ، فكن قرير البال ، واسأل ما شئت .

– لقد وقعت بيني وبين قومي ديات ، فاحتملتها في مالي وأملي .. أما المال فقد عدمته ، وأما الأمل فمعقود عليك .

– وما ديات قومك ؟

– ثلاثمائة من الأبل .

قال حاتم :

– ما خاب أملك .. ومن حسن حظك أننا أصبنا غنيمة من بني تميم ، ومرباعي منها مائتا بعير ، ما عدا النياق وصغارها ، فعليك بها وبما ينقصك من ابلي وفاء لحمالتك .

وعاد الرجل بعطاء حاتم غانما .

وقال حاتم لامرأته :

– أنا خارج في حاجة يا ماوية ، وقد يطول غيابي عن الحمى زمنا ، فأوصيك بالضيوف .

قالت ماوية :

– ألومك يا حاتم على بذلك وسخائك ، وأرى ذلك واجبا بحضورك . وأما في غيابك فأنا يمناك التي تبذل وتسخو ، فلا يقال امرأة حاتم ردت ضيفا أو سائلا لحاتم ، وحسبي عزتك وكرامة نفسك .

* * *

حاتم وغلام له في الصحراء ، يسيران على راحلتيهما الهوينا ، و « الهاجس الحاتمي » لا يفارق الرجل الذي عاش كريما ، ويأبى أن يفارق الدنيا الا كريما .

وكان حاتم شاعرا ، وطاب له أن يقول الشعر ، أن يرسله من نفسه السمحة ، فراح ينشده صامتا ، وعلى وجهه فيض من ارتياحه النفسي :

أماوي أن المال غاد ورائح
وبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوي أني لا أقول لسائل
اذا جاء يوما حل في مالي النذر
أماوي ما يغني الثراء عن الفتى
اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر
أماوي أن المال مال بذلته
فأوله شكر وآخره ذكر

وكان لا بد من راحة ، فاذا هما في أرض لا يجهل حاتم أهلها ، قال :

– ها نحن أولاء بأرض بني عنزة يا غلام ، وعما قليل نصل الى منازل القوم ، فعليك بكتمان اسمي أتم الكتمان ، لأنني أسير كما ترى متنكرا الى حاجتي ، وأود أن لا يعرفني في طريقي اليها أحد .

وخاب ظن حاتم في تنكره ، فاذا هو بين المنازل ، وأهل الحي يستقبلونه استقبالهم أي ضيف ، من غير أن يعرفوا من هو :

وفجأة تعالى صوت مناد :

– يا حاتم ، يا أبا سفانة :

وفوجيء حاتم بالنداء .. واذا هناك أسير في القيود ، عرف « أكرم الناس » من أول نظرة ، فناداه مستنجدا .

وفوجيء أهل الحي كذلك .

أحاتم الطائي عندهم ؟

وتابع الأسير :

– لك الله ، يا أكرم الناس .. لقد أكلني الأسار ، ولست بتاركي في ما أنا عليه .

قال حاتم :

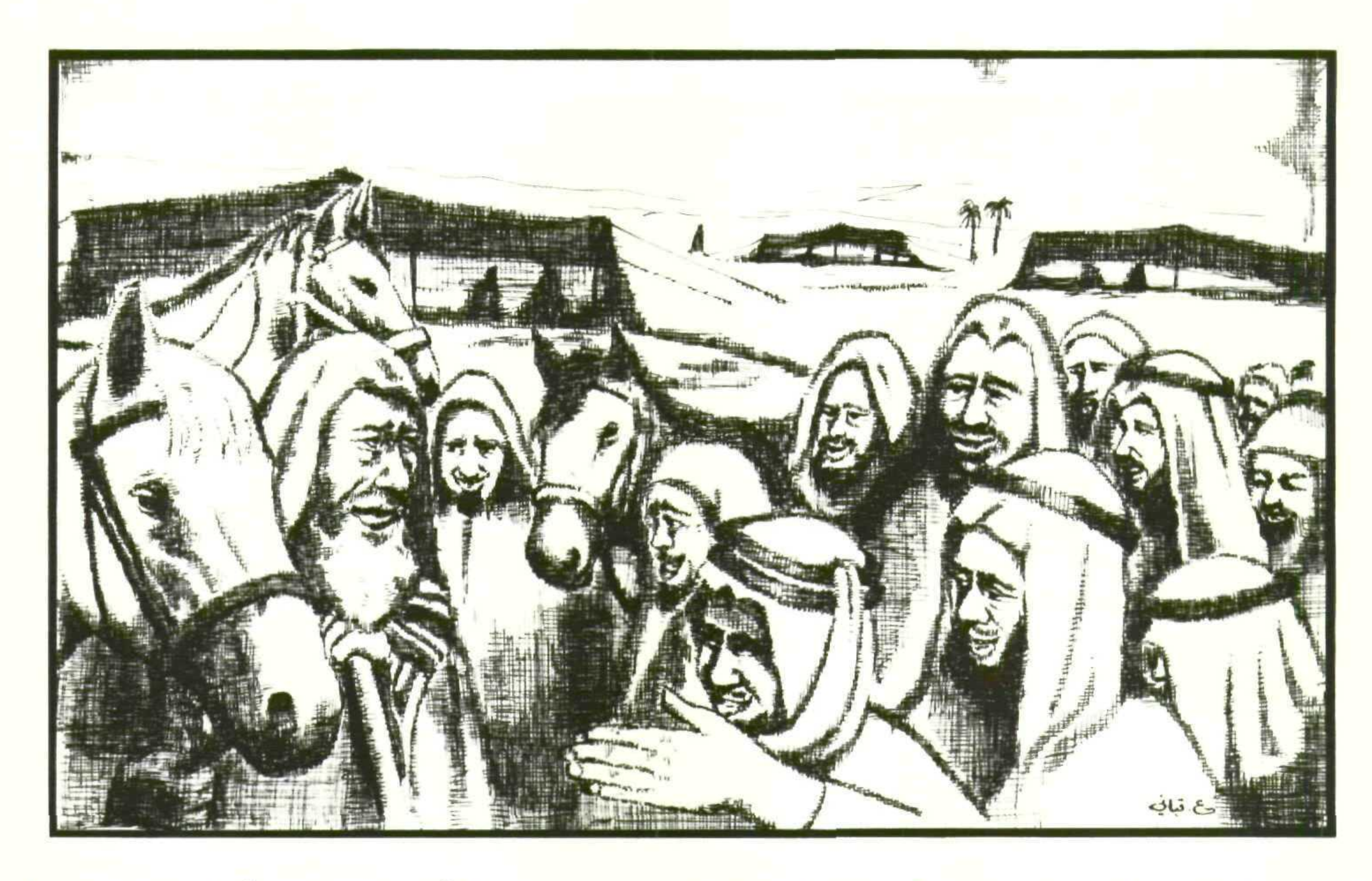
– ويحك ، يا هذا .. ما أنا في أرضي وقومي ، وما معي كما ترى شيء أفديك به ، وقد أسأت الي اذ نوهت باسمي .

– قال الأسير :

– لقد عرفتك يا أبا سفانة .. واذ رأيتك شعرت بأني استعدت حريتي ، وأنا الآن في ذمتك .

قال حاتم :

– افتديتك يا رجل ، فأين شيخ القبيلة ؟



وراح الى الشيخ ، والشيخ يعرفه .. فاستقبله بما هو أهل له من الحفاوة ، ولما عرف لأي حاجة قصد اليه ، قال :

نهبك الأسير ونفك اساره اكراما لك ، وأنت أكرم من وهب من الناس وأعز من يوهب .

قال حاتم :

— افتديت الأسير ولا أقبله هبة ،.. واذ كنت لا أحمل مالا ، فاني مقيم في الأسر مكانه ، الى أن يمضي غلامي ويجيء بالمال .

قال الشيخ :

— لن يكون هذا .. لن يقيم الطائي في قيد الأسارى ، فيقال أن في عنزة من يضع المال فوق قدر الرجال .

قال حاتم :

— ولن أقبل الأسير هبة منكم فيقال أن الطائي يزيد من قدر كرمه باستغلاله كرم سواه .

قال الشيخ ضاحكا :

— اذن ، يقيم الطائي بيننا على الرحب ، الى أن يمضي غلامه ويعود بالمال .

* * *

قالت ماوية ، وقد أقبل الغلام عليها في طلب المال لحاتم :

— ويحي .. يقيم في الأسر لافتداء رجل تخلى عنه ذووه ؟

قال الغلام :

— لقد وهبه شيخ القبيلة الأسير فرفض قبوله كهبة .

قالت : يا له من رجل .

وتعالت في تلك اللحظة صرخات :

— حاتم ، يا حاتم .

— أين أبو سفانة ؟ أين نجده ، يا ماوية ؟

قالت ماوية :

— ما دهاكم ، وما حاجتكم اليه ؟

فتعالت الصرخات ثانية :

— غزانا النعمان ، وأصاب منا أسرى .

— زوجي في جملة الأسرى .

— والد عيالي في عدادهم .

— ليعد حاتم من سفره في الحال .

— أقمناه رئيسا علينا ، فعليه أن يتحمل همومنا .

قالت ماوية للغلام :

— أسمعت يا هذا .. عد الى حاتم ، واستحثه على العود ، دون مهلة .

* * *

عاد الغلام الى حيث كان حاتم بانتظار عوده ، ومعه مال الفدية للأسير ، وحكى حكاية غزو النعمان لقبيلتهم وما نتج عنه ، فقال الشيخ العنزي :

— أيغزوك النعمان يا حاتم ، مع ما بينك وبينه من عهود الصداقة ؟

قال حاتم هادئا :

الملك النعمان .. لقد كنا نحن البادئين بغزوه ، فلا يلام اذا غضب ، وقابل الاساءة بمثلها .

— وكيف كان ذلك ؟

— اغتنم جهال قومي فرصة تغيبي في سفر ، فأغاروا على ابل له ، وأصابوا منها شيئا .

— وما أنت بعد فاعل ؟

قال حاتم :

— أنا عائد الى الحمى ، لأرى ما أضرت غزوته بنا ، وأسعى الى اصلاح ما أفسد الجهل .

* * *

عاد حاتم الى الحمى ، فاذا الشاكون يلتفون حوله بصراخهم :

— همنا في عنقك ، يا حاتم .

— لقد أصاب النعمان موارد عيشنا .

— ورجالنا يرسفون بالأغلال لديه .

— ولا ينصفنا منه سواك .

قال حاتم مغضبا :

— ما ظلمكم النعمان ، ولكن ظلمتم أنفسكم .. أتغزونه في غيابي ، وأنتم على علم بما بيني وبينه من مودة ، وتحملونني همكم ؟

قالوا : أنت سيد العشيرة .

— ان أنت لم تحمل همنا فمن يحمله ؟

— جهالنا ما نحن بمسؤولين عن جهلهم .

وحاتم يعرف الحق ، قال :

— بهذا صدقتم .. على سيد القوم أن يتحمل مسؤولية الجهل في قومه .. وأنا ماض الى الملك النعمان ، فاما أن أستعيد أسراكم ، واما أن أبقى أسيرا لديه ، لأكفر بذلك عن خطأ ارتكبتموه ، وتأبى السيادة الا أن أحمل وزره عنكم .

* * *

كان النعمان ملك الحيرة ، وحاتم في عداد الذين صادقهم ، وجعل لهم مكانة خاصة عنده . والغزو كان عادة في عهده ، وعهده عهد الجاهلية .

فكان أن اغتنم جهال من عشيرة حاتم فرصة تغيب حاتم عنهم ، فأقدموا على غزو مال للنعمان ، وأصابوا منه غنما .

فكان طبيعيا أن يغضب النعمان ، وأن يقابل الاساءة بمثلها ، الا أن صداقته لحاتم ، وتقديره للرجل الذي كان رمزا للكرم العربي ، كانا فوق الاساءة والغضب ، فقال لأهل بلاطه :

— ما كنت أرجو أن يصاب حاتم بما أصبناه ، ولكن اغارة قومه على ابلي أخرجتني عن طوقي ، وأنا واثق بأنه كان أذاك متغيبا عن عشيرتــه ، والا لما تجرأ جهالها على عملهم .

قال أحدهم :

— ان حاتما ، وأنا أعرفه جيدا ، يكن لكم كل احترام ، يا مولاي .

قال النعمان :

— ولذا أسفي .. وأرجو أن يأتي الى هنا لأنصفه الانصاف الذي هو أهل له .

وتهلل وجهه ارتياحا ، عندما قيل له : أن حاتما بالباب ، فقال :

— ليدخل علي في الحال .

وتابع قائلا لمن معه :

— لكأني كنت على موعد واياه .. ان عشيرة هو سيدها تغتفر ذنوبها ، ولن يكون الطائي أكرم من الملك النعمان .

ودخل حاتم عليه ، فاستقبله بقوله :

— يا مرحبا بحاتم .

قال حاتم :

— لمولاي الملك ولائي .. وقد جئت أعتذر اليه عن قومي ، عن حماقة ارتكبها جهالهم ، وأنا عن الحي وعنهم في غيبة .

قال الملك :

— قلت أنا هذا ، وكنت بانتظارك لأنصفك ، وأنت أهل لذلك .

قال حاتم :

— ما أنا بمظلوم لأنصف .. أنا سيد القوم ، والمسؤول عن جهلهم وحماقاتهم . ولـئن يكن للملك أن يستبقي من أصاب منهم في الأسر ، جزاء الاساءة التي ارتكبوها . فالأحرى أن يضمني ، أنا المسؤول الأول عن هذه الاساءة ، اليهم في الأسر .

قال النعمان ضاحكا :

— اذن جئت لتقيم في الأسر ؟

— احقاقا لحق مولاي .

— واذا وهبناك الأسرى ؟

— أبقى أنا أسيرك .. ويطيب لي أن أبقى أسيرك ، ان لم يكن لعفوك وقد عفوت ، فاستغفارا من نفسي لنفسي ، وأنا لا أستطيع أن أقابل معروفك بمثله .

قال النعمان مرتاحا :

— سقيا لك ، يا حاتم .. انك تعرف كيف تكون أكرم الناس وأسخاهم حتى اذ يحاول النعمان نفسه أن يجاريك في كرمك وسخائك .

وأردف قائلا :

— لك نهب أسرى قومك ونفك اسارهم ، ولقومك نعيدك مكرما ، وقد أبيت الا أن تكون أسيرنا ، ولن نقبل بعد اعتراضا .

* * *

عاد حاتم بالأسرى ، واستقبله قومه فرحين مهللين :

— لقد عاد حاتم بأسرانا .

— وبرضى النعمان .

— مرحى لأكرم سادة العرب .

— ولسيد الطائيين ، بلا منازع .

فقال قائل :

— استثنوا ، يا قوم .

قالوا : لا نستثني .

قال : استثنوا سعد بن حارثة .

قالوا : لا نستثني أحدا .

قال : انه ابن عمك ، وسيد بني لأم ، وأسخى من أعطى ومن بذل .

قالوا : يتحداه حاتم .

— يماجده في الطعام والشراب .

ونادى أحدهم :

— يا حاتم ، يا أبا سفانة .

قال حاتم ملبيا :

— ما تريدون مني ؟

قالوا : هلا ماجدت سعدا بن حارثة في البذل ؟

قال : ويحكم .. لم أماجده ، وهو ابن عمنا ، وما ماجدنا يوما ، ولا تحدانا ببذله ؟

قالوا : هنا واحد من قومه يتحدى .

— يريد أن نستثنيه ، اذ نصفك بأكرم الباذلين .

— يريد أن نتخلى له عن كرامتنا .

قال : ومن الرجل ؟ وكان رجل سعد بينهم ، قال :

— أنا هو ، يا حاتم .. ليست أمجاد طي وقفا عليكم ، معشر بني عدي ، وفي لأم أكفاء لهذه الأمجاد ، وسعد بن حارثة جدير بالحفاظ عليها .

قال حاتم :

— أبلسان سعد تتكلم ؟

قال الرجل :

— بلسانه ولسان بني لأم جميعا .

قال حاتم وقد ثارت حميته :

— اذهب اذن الى سعد ، وقل له اننا نتحداه ، وعلى استعداد لمجاده أنى شاء ، وفي أي وقت يحدده لذلك .

قالت ماوية لائمة :

— أتماجد سعدا يا حاتم ، ونحن على ما نحن عليه ، من قلة الخير والمال ؟

قال مصرا :

— لقد تحدانا سعد ، ولا بد من مجاده .

— ما تحدى هو ، بل رجل آخر .

— بلسانه تكلم الرجل .

— قد لا يكون قوله صحيحا .

— على سعد أن يكذبه .

— ولكن سعدا كثير المال .

— ما تهمني كثرة ماله .

— والنعمان صهره ، ولن يتخلى عنه .

— ولنا أبناء أعمام لا يتخلون عنا .

— من تعني منهم ؟

— مالكا بن جبار ، ووهما بن عمرو ، وكلاهما ذو مال ، وعن حسبهما وحسبي أخاطر .

قالت ماوية :

— ولكنك لا تجهل أن مالكا بخيل ، وأن بينك وبين وهم مصارمة ، فما رجاؤك منهما !

قال : لا بخل ولا مصارمة ، اذ يكون الحسب في خطر .. ومهما يكن من أمر يا ماوية ، فلست براجع عن مجاد سعد ، أو كان الموت خيرا لي وأفضل .

قال سعد بن حارثة لناقل خبر التحدي والمجاد اليه :

— يماجدنا حاتم ، ونحن لها .. أيريد ذلك الرجل أن لا يكون في طي ، وفي العرب أجمع ، كفوٌ له في كرمه ؟

قال الرجل مجسما الأمر :

— حتى ولا من يدعي البذل .. وليتك سمعته بأي لهجة ساخرة أجابني ، وأنا أطلب استثناءك ممن يدعي أنهم أصغر منه شأنا ، قال : ليت سعدا يماجدني لأرى الى أي حد يمكنه الثبات في مجالي .

وأغاظ ذلك سعدا ، فقال :

— سنماجده ، ونضرب له في سوق عكاظ موعدا ، ومنا تسعة أفراس ومنه فرس واحد ، وسنرى لمن منا تكون الغلبة .

وبعث الى حاتم يبلغه ذلك .

فقال حاتم لامرأته :

— أرأيت يا ماوية كيف أن سعدا لم يكذب رجله ، بل بعث بالعكس يؤكد لنا التحدي ، ويضع لذلك رهنا ؟

قالت : وما الرهن ؟

قال : تسعة أفراس منه ، وفرس واحد منا .

— ومكان المجاد ؟

— سوق الحيرة .

قالت متحمسة :

— ماجده اذن .. وامض في الحال الى أبناء عمومتك ، الى من ذكرت ومن لم تذكر منهم ، ودعهم يشعرون بأن كرامة حاتم وكرامتهم واحدة ، وانك لانقاذ هذه الكرامة تماجد وتخاطر ، وما اخال واحدا منهم يتردد اذ ذاك في الوقوف الى جانبك .

* * *

انتشر خبر المجاد المثير ، بين حاتم وسعد ابن حارثة ، في جميع أحياء الحيرة ، وتحدث الناس بكثير من الفضول والاهتمام عنه :

— أبناء العمومة يتنافسون في الكرم .

— ستشهد سوق الحيرة أعظم مجاد عرفته في تاريخها .

— لن تكون الغلبة لحاتم ، والنعمان صهر ابن حارثة ، ومعينه في أوقات الشدة .

— ولحاتم أبناء عمومة .
— من الغوث وثعل أبناء عمومته .
— ويكفي أن يكون وراءه صديق الملك الأول اياس بن قبيصة .

كان مالك بن جبار ، من أبناء عمومة حاتم ، مشهورا ببخله .. وقد سمعنا امرأة حاتم تحذر حاتما من الاعتماد عليه ، ومع ذلك فقد كان أول من قصد اليه حاتم ، وأطلعه على حكاية المجاد الذي أخطر اليه ذودا عن الكرامة ، فقال مالك :

— لقد أخطأت يا حاتم في مجادك سعدا ، وأنت تعلم صلاته بالنعمان ، وغيرة النعمان عليه وعلى عشيرته .

قال حاتم لائما :

— تقول هذا يا مالك ، وأنت تعلم أني أماجد لكرامتنا وحسبنا ، وسيكون الغوثي أول من يصاب بكرامته وحسبه ، يوم لا يبقى لي كرامة ولا حسب ؟

— قال مالكا لا مباليا :

وما أستطيع أن أفعل لك ؟

قال حاتم :

— انك ذو مال ، وفي وسعك أن تمدني بما أحتاج اليه ذودا عن كرامتنا وسمعتنا .

قال مالك مستخفا

— ما أنا بحاجة الى هذا المجاد .. وما كنت لاحرم نفسي وعيالي مالا جمعته بتعب العمر ، لأهدر هذا المال جزافا في مجاد لا أرى منه جر مغنم .

قال حاتم :

— ما هذا برأي ، يا ابن العم .

قال مالك مصرا :

— انه في كل حال رأيي .

قال حاتم ، وفي لهجته حدة .

— لا أهنئك عليه .. وسترى أن حاتما دون كرامة قومه ، حتى ولو تقاعس مالك بن جبار عن نصرة هذه الكرامة .

وانصرف عنه قاصدا الى وهم ، وبينه وبين هذا خصومة .

ومع ذلك فقد كان استقبال وهم له غير استقبال مالك .. وكان قد سمع بخبر مجاده لسعد ، فقال له :

— كنت أخشى يا حاتم أن لا تأتي الي ، وتحرمني شرف الوقوف الى جانبك في مجاد ابن حارثة .

قال حاتم :

— ولم لا آتي اليك ، يا وهم ؟
— لما بيني وبينك من خصومة .
— لا خصومة يا ابن العم ، اذ تكون الكرامة مهددة ، والحسب في خطر .
— لا تهدد كرامة أنت حاميها .. وحسب الطائي لن يمس ، ووراءه من يفتديه بالروح ، فكيف بالمــــال ؟

قال حاتم مرتاحا :

— ما قصدت الى وهم ، وأنا في شك من كرمه .

قال وهم والحماسة آخذة منه :

— وما أضع مالي ومال عشيرتي بأجمعه بين يدي حاتم ، الا ليبقى كرم حاتم فوق طموح من يباريه لينتزع من طي عنوان عزها ومجدها .

* * *

كان اياس بن قبيصة ذا مال كثير وجاه ، وله عند النعمان منزلة لا يزاحمه أحد عليها ، ولم يكن للمال عنده قيمة ، اذ يكون من وراء بذله تعزيز لشأنه وشأن قومه .

وعندما سمع بما بين حاتم وسعد ، جمع كبار عشيرته من بني حية ، وقال لهم :

— يا بني حية .. لقد أتاكم خبر المجاد بين حاتم وسعد .. ان بني لأم يريدون كرامة ابن عمكم ، وما كنت والله لأرضى أن ينالوا منه ، حتى ولو كلفنا الأمر بذل أرواحنا بعد المال في سبيله .

وتحمس سامعوه ، فارتفعت أصواتهم ، وكأنها صدى لصوته :

— لا نرضى أن يمس حاتم في مجاده .
— عندي له مائتا ناقة .
— وعندي له عشرة أجياد على كل منها فارس مدجج لا يرى منه الا عيناه .
— وعندي له كل ما ترك والدي .. ما دام المجاد قائما .

قال عندئذ اياس :

— أما أنا فعلي مثل ما أعطيتم كلكم . . وأنــــا ماض الى النعمان ، فأحذره من نصرة ابن حارثة .

* * *

النعمان في حيرة .

خبر المجاد بين صديقه حاتم ونسيبه سعد يزعجه ، فالصداقة كالنسب لها عنده حقوق ، وسعد يأتيه سائلا المدد .

أيمده بماله ، ويتحدى صديقه حاتما ؟

بالأمس القريب قال لحاتم انه أكرم الناس ، وحتى هو النعمان لا يجاريه في كرمه ، فهل يغير رأيه فيه ؟

وقال لسعد :

— لقد أحرجتني بمجادك حاتما ، فأنت تعلم بما لقومه من مكانة في الحيرة ، وبما له عند قومه من منزلة تحملهم على الانتصار له .

ولم يكن سعد غريبا عن ذلك .

كان يعلم أنه بمجاده حاتما يماجد قوم حاتم ، وقوم حاتم غير من يستهان بهم مكانة ومالا ، الا أن صلة النسب بينه وبين النعمان كانت مما يحمله على الاغترار والتحدي ، قال :

— أبيت اللعن ، أيها الملك .. ما ماجدنا حاتما الا لتحديه لنا ، وما يهون عليك أن تهدر كرامتنا ، وأنت صهرنا وتتحمل معنا أعباء هذا المجاد .

وأعلن الحاجب الذي في الباب مجيء اياس ، فقال النعمان :

— ليدخل .

وقال لمن حوله :

— لا شك في أنه قادم لما نحن فيه ، واياس صعب الشكيمة في تعصبه لقومه ، وله عندنا حرمة لا يقدم أي اعتبار عليها .

ودخل اياس ، وحيا :

— أنعم صباحا ، أيها الملك .

قال النعمان :

— وحياك الله ، يا اياس .

قال اياس :

— علمت أنك ستمد أختانك بالمال والخيل ، لتجعل بني ثعل في قصر الكنانة ، أيها الملك .. أظن هؤلاء الأختان أنهم صانعون بحاتم ما صنعوا بعامر بن جوين ، ولم يعلموا أن بني حية في البلد ؟

قال النعمان :

— ومن أنبأك يا اياس أننا سنمدهم بخيلنا ومالنا ؟
— حديث الناس أولا .
— وبعده ؟
— ووجود سعد هنا .

وارتفع صوت اياس منذرا :

— وليعلم مولاي أننا وراء حاتم نشد من أزره ونفتديه بالمال والرجال .. وموعدنا وابن حارثة قريب .

قال النعمان مهدئا :

— يا أحلمنا .. لا تغضب ، فاني سأكفيك .

والتفت الى سعد متابعا :

— عليك يا سعد بارضاء ابن عمك حاتم ، فما أنا بمعطيك من مالي لنجاده ، لن أجعل بيني وبين كرام القوم بذلك مجالا لخصومة .

وكان في لهجته من الجد والقسوة ، بالاضافة الى لهجة اياس الصارمة ، ما جعل سعدا يتهيب الموقف ، قال :

— أعرضنا ، أبيت اللعن ، عن مجاد حاتم .

قال اياس :

— وتتركون له أفراسكم التسعة التي راهنتم عليها .

قال سعد :

— أنقر لـه بالغلبة من غير أن نماجده ؟

قال اياس :

— لن يرضى بغير هذا .. ولـئن يرض هو ، فسنأبى عليه الرضى ، ونحن من ماجدتم اذ ماجدتموه ، وكنا واياه في الغنم والغرم .

قال النعمان :

— لقد تركوا له الافراس .

قال حاتم ، وقد عاد بأفراس سعد التسعة الى الحي مزهوا :

— لتنحر هذه الأفراس ، وليأكلها الناس ، ويكفينا حسن الثناء .

وتعالت هتافات أهل الحي :

— مرحى لحاتم .
— مرحى لأكرم العرب بلا منازع .
— حفظت يا حاتم كرامة قومك .
— ورفعت لطي عمادها الذي لا يطاول .

وبلغ ارتياح حاتم الذروة ، وهو يسمع هتافات القوم تلك ، فقال لامرأته :

— أحس يا ماوية كأن عشرات الأجيال بعدنا تردد هذه الهتافات .. وما أجمل وأروع أن يحس المرء بمجـده وطيب ذكراه قبل رحيله من دنياه ■



للشاعر طاهر زمخشري

يا شراع الشوق في بحر الأماني
فاقطع اليم الى شط الرضا
ومن الليل جناح خافق
والمجاديف التي أحملها
رجعت تضرب في لج الأسى
وعلى رغم النوى ما فتئت
بفؤادين استراحا للهوى
فالتباريح التي كنا بها
أصبحت بردا ومن أندائها
واللظى الموّار من حر النوى
يا شراع الشوق في بحر الأماني
أحسب الوقت الذي أعبره
كلما رف فؤادي ارتعشت
تسأل الأحلام عن ميعادنا
والأسى كان قضاء راصدا
والجوى كان لهيبا صارخا
زورقي الساري على رأد الضحى
واصلته الرحلة في درب النوى
في غد .. يطلع فجر مشرق
يا شراع الشوق في بحر الأماني
عبرا التيه .. وما ضاقا به
وانبرى كل وفي غربته
وعلى درب النوى قد غردا
والسرى طال ولكن المدى
ومن الشوك وثير للخطى
فاذا صاح الشجا في مهجة
وهي لا ترقب الا عودة
فاذا أقبل فالليل له
بالسنا يضحك من فتنته

قد أجبت الحب لما أن دعاني
بفؤاد ذاب في رجع الأغاني
رف بالأحلام تشدو بالحنان
بعد أن ضاقت بما منه أعاني
وتلهت بتصاريف الزمان
تقطع الشوط الى بر الأمان
واستطابا العيش في ظل التداني
نذرف الآه .. ويشقى خافقان
يتساقى بالأماني ظامئان
لم يعد يلذع .. من حلو الأماني
ناغمت روحي . . دقات الثواني
لتلاقينا برجع الخفقان
لهفة ظمآى .. بأطراف لساني
فيجيب الصمت في جو المكان
صوّب الفرقة سهما ورماني
ذوّب المهجة مني وشجاني
بفؤاد خفقه رجع مثاني
مرفأ الأحلام من عيني دان
والرؤى تضحك من حلو الأماني
كم من الفرحة .. غنى والهان
لا ولم تعثر لأي قدمان
يسكب الآه بدمع وبيان
لتباريح .. طوتها مهجتان
ضاق لما أن طواه عابران
ومن المقلة حبات جمان
دوت الأصداء منه في المغاني
لربيع الحب .. صداح الأغاني
فلك .. والروض بسام المعاني
بطيوب الصفو في ظل التداني

اخبار الكتب



* المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ ميخائيل نعيمة تصدر تباعا وعلى نسق واحد وتضم جميع آثاره المنشورة وكذلك رسائله الأدبية . وقد صدر المجلد الأول من هذه المجموعة مشتملا على الأجزاء الثلاثة للكتاب « سبعون » وهو سيرة حياة نعيمة الى سن السبعين وان كان شارف اليوم الثمانين . والمأمول أن تقع هذه المجموعة الكاملة في عشرة مجلدات .

* صدرت أخيرا ثلاث حلقات جديدة من « موسوعة العتبات الجديدة » التي يصدرها العلامة العراقي الأستاذ جعفر الخليلي . كما صدرت خمسة أجزاء من « التفسير الكاشف » للشيخ محمد جواد مغنية ولم يبق الا جزءان يكتمل بعدهما تفسيره للقرآن الكريم .

* « المعجم المساعد » الذي صنفه العلامة الراحل الأب أنستاس ماري الكرملي وتوفي قبل أن يصدره ، يعكف على تحقيقه ومراجعته وضبطه العلامة العراقي الأستاذ كوركيس عواد والأستاذ عبد الحميد العلوجي ، وينتظر أن يصدر في أجزاء متعددة .

ومن المعاجم التي صدرت أخيرا « معجم المعاني » وقد حققه الأستاذ هلال ناجي عن مخطوطة كتبت في القرن الرابع ، وهو من الينابيع التي استقى منها الثعالبي كتابه « فقه اللغة » .

* من كتب التراث التي حققت أخيرا « المغانم المطابة في معالم طابة » لمحمد بن يعقوب الفيروزأبادي وقد حققه العلامة الكبير الشيخ حمد الجاسر ، و « الفاضل في صفة الأدب الكامل » للوشاء وهو في جزءين من تحقيق الأستاذ يوسف يعقوب مسكوني ، و « العهدة » وهي رسالة في الخط والقلم من تراث القرن التاسع الهجري وقد حققها الأستاذ هلال ناجي و « السماع » لابن القيسراني وهو من تحقيق الدكتور أبو الوفا المراغي ، و « الموافقات في أصول الأحكام » للشاطبي وقد ظهر في أربعة أجزاء من تحقيق الأستاذ محيي الدين عبد الحميد ، والجزء الأول من « معرفة السنن والآثار » لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي وقد حققه الأستاذ السيد أحمد صقر ، و « حكم الميراث » لأبي اليقظان وقد حققه الأستاذ عطية الجبوري .

* يتناول الكتاب الجديد الذي يعكف على اعداده الدكتور فؤاد صروف « الانسان والبيئة » ويعالج مشكلات الاقتصاد والاجتماع والطعام وما اليها التي يتعين على الانسان أن يتغلب عليها ليكفل الرخاء والطمأنينة في العالم .

* من الدراسات الأدبية النفيسة التي صدرت أخيرا كتاب « بحوث ودراسات في العروبة وآدابها » للأستاذ محمد خلف الله أحمد ، و « محاضرات في تاريخ العرب والاسلام » للأستاذ عبد اللطيف الطيباوي وهو في جزءين ، و « دراسات في النقد الأدبي » للأستاذ رشيد العبيدي وهو في جزءين .

* من كتب السير والتراجم الجديدة التي صدرت مؤخرا « ولاة طرابلس الغرب » للشيخ الطاهر أحمد الزاوي ، و « خواطر عن الفيلسوف الكندي » مع قائمة بمؤلفاته وبعض رسائله للأستاذ يوسف يعقوب مسكوني ، و « طلعت حرب : بحث في العظمة » للأستاذ فتحي رضوان ، و « أسامة بن منقذ » للأستاذ جمال الدين الآلوسي ، و « أبو عثمان المازني ومذاهبه في الصرف والنحو » للأستاذ رشيد عبد الرحمن العبيدي ، و « رباب الكاظمي » للأستاذ عبد الرحيم محمد علي . كما تصدر دار المعارف كتابا كبيرا عن « الشاعر الياس فرحات » للأستاذ سمير بدوان .

* من الكتب الدينية التي صدرت حديثا هذه المجموعة : « السبيل الى دعوة الحق والقائم بأمرها » للدكتور محمد البهي ، و « الدين والعمل » للحاج عباس كرارة ، و « الاسلام والمفهوم الحديث للقيم الانسانية » للدكتور محمود حب الله ، و « المعجزة الخالدة : القرآن الكريم بمناسبة مرور ١٤ قرنا » للأستاذ محمود الباجي .

* في الشعر المهجري صدر ديوانان للشاعر الأستاذ شكر الله الجر هما « الروافد » و « زنابق الفجر » كما صدرت طبعة جديدة من ديوان « نداء الغاب » للشاعر الأستاذ وديع رشيد الخوري .

ومن الدواوين الجديدة التي ظهرت « الربيع العظيم » للأستاذ أنور خليل ، و « أجراس اليوم » للأستاذ أديب صعب ، و « نصف وقفة » وهو ديوان بالفرنسية للشاعرة هدى ألبير أديب ، و « اللواعج » للأستاذ أنطون الحايك ، و « أشواك الوردة الزرقاء » للأستاذ عبد الجبار عباس .

وظهرت للشاعرة جليلة رضا مسرحية شعرية عنوانها « خدش في الجرة » طبعت في الدار البيضاء .

* في الطب صدر كتابان أولهما للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله وعنوانه « الطب والأطباء في المغرب » والثاني للمستشار الأستاذ كامل البهنساوي وعنوانه « النباتية والنباتيون » .

* صدر للدكتور ابراهيم السامرائي بحث مقارن جديد عنوانه « لغة الصحافة » .

* في الأدب الروائي صدرت رواية للسيدة جيلان حمزة (كريمة المرحوم الدكتور عبد اللطيف حمزة) عنوانها « ألملم عقدي بغضب » كما صدرت للسيدة سلمى الحفار الكزبري رواية « عينان من اشبيلية » ، وصدر للأستاذ كمال الملاخ كتاب « حكايات صيف » وفيه حكايات صحفية مستمدة من اتصالاته في عمله الصحفي . كما صدر للأديبة صافي ناز كاظم كتاب « رومانتيكيات » وهو خواطر قصصية وشعرية واجتماعية . ووضعت الأديبة شرقية الراوي دراسة عن « الأوذيسة العربية » ، وهي تعد دراسة عن الشاعر العراقي الراحل عدنان الراوي .

* صدر للأستاذ هلال ناجي كتاب جديد بعنوان « على الهامش » وفيه فصول في النقد والأدب .

* تمت الأجزاء السبعة لكتاب « تاريخ الحضارات العام » الذي ألف باشراف موريس كروزيه وترجمه الأستاذان يوسف أسعد داغر وفريد داغر وتزيد عدد صفحات هذا الكتاب على سبعة آلاف صفحة .

* عنيت وزارة الشؤون الاسلامية في المغرب باخراج كتاب « مختصر العين » للخليل الفراهيدي وهو مختصر أعده أبو بكر محمد بن الحسين الزبيدي الأشبيلي وأشرف على تحقيق جزئه الأول الأستاذان الكبيران علال الفاسي ومحمد بن تاويت الطنجي . ويعد هذا الكتاب من متون اللغة وأمهاتها ■

كتب مُهْدَاة

حظيت مكتبة القافلة مؤخراً بهذه الطائفة من المؤلفات :

* « الحلاج » ، وهي مسرحية شعرية من اربعة فصول للشاعر عدنان مردم بك .

* « صفحات من تاريخ أندونيسيا المعاصرة » للأستاذ محمد أسعد شهاب .

* « تراجم اسلامية شرقية وأندلسية » للمؤرخ محمد عبد الله عنان .

* « هل لك في الكون نقيض » و « المكروبات والحياة » و «دورات الحياة» و «الفطريات والحياة» و «أسرار المخلوقات المضيئة» و «الفيروس والحياة» و «لماذا نموت» و «معارك وخطوط دفاعية في جسمك» وجميعها للدكتور عبد المحسن صالح ■

تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب *



تأليف المرحوم عبد الرحمن الانصاري

عرض وتعليق الاستاذ عبد القدوس الانصاري

ظل هذا الكتاب راقدا في أحضان خزائن الكتب الخاصة ، زهاء مائتي عام ، وقد رأى نور النشر ، أخيرا ولأول مرة ، على يد الأستاذ الأديب «محمد العروسي المطوي» التونسي . وقد نشر الكتاب نشرا علميا محققا ، وطبع طبعا موفقا بتونس. . فالكتاب مدنيّ المنشأ والموضوع ، تونسيّ الطبع والنشر والاخراج . وقد وضع له محققه الفاضل مقدمة أماطت اللثام عن أهميّته التاريخية ، وشرح معظم الكلمات الأجنبية الواردة فيه ، ووضع له فهارس كشفت مخبآته ، وقابل بعض كلماته .

أهميّة الكتاب

تنصّب أهمية هذا الكتاب في ارشاده القارىء الى الأوضاع الاجتماعية والسياسية والفكرية السائدة في بيئة المدينة المنورة في القرن الثاني عشر الهجري ، وفي أطراف من القرن الحادي عشر وما قبله . والقارىء الذي يمضي في مطالعة الكتاب يستمتع بأسلوب المؤلف الخفيف المستمد من الفصحى ولهجة زمنه وبيئته وهو في الوقت ذاته يشعر – لشغوف أسلوب الكاتب – كأنه يعيش معه ، ويزامله في تتبع بعض الأوضاع السائدة في عصره في المدينة المنورة ، ذات الأحوال السياسية المضطربة ، والظروف الاجتماعية القلقة .. كل ذلك بالاضافة الى موضوع الكتاب الأساسي ، الذي هو تحرير أنساب المدنيين في عهده ، بصرف النظر عما يحيط بهذا التسجيل من تحيزات جانبية ، واندفاعات عاطفية ، تبدو ايجابية بحتة بالنسبة لبعض ، وتبدو سلبية محضة بالنسبة للبعض الآخر . وتتمثل ذروة أهمية الكتاب من الناحيتين المشار اليهما آنفا في أنه يكاد يكون المؤلف الوحيد النابع والمنبثق من المدينة المنورة نفسها ، فهو تأليف مدنيّ يؤرخ لأهلها من وجهة نظره ، ويستعرض ما أمكنه استعراضه من أحوالها وتصرفات سكانها ، واتجاهاتهم ، وأهدافهم الخاصة والعامة .. وأهل مكة أدرى بشعابها كما يقول المثل السائر . وقد ترجم الكتاب لـ ٣١٣ أسرة في المدينة . وبدهيّ أن بعض هؤلاء قد انقرض ، كما أنه نشأت أسر أخرى بعد ذلك لم يلم الكتاب بها ، وربما كانت هناك « بيوت » و « أسر » غير من ذكرهم ، ولأسباب خاصة رأى أن يهمل ذكرهم . ومما يلاحظ على المؤلف تعرضه في أماكن كثيرة

* يقع الكتاب مع مقدمته وفهارسه وملحقاته في (٥٧٠) صفحة من الحجم المتوسط . وقد طبعته على ورق صقيل متين أبيض الشركة التونسية لفنون الرسم في يونيه ١٩٧٠ ، ونشرته « المكتبة العتيقة » بتونس .

لبعض الأسر المدنيّة ونفيه بدون ابداء أسباب أو تقديم أدلة أو شواهد، لصحة انتسابهم لمن ينتسبون اليه . وهذا يدل على شيء من روح العنصرية أو التّحزّب السائد وقتها في المدينة المنورة .

خصائص الكتاب

والمؤلف ، على ما لمسته من كتابه ، عاطفيّ متأجج العاطفة ، ان أحب غالى في الثناء ، وان كره أو تأثر بالغ في القدح والنقد ، وهو جريء مقدام في مديحه ونقده ، لا يبالي بصديق أو عدو ، ولا يراعي ظروف المجتمع وعواطفه فيما يسجله في كلتا الناحيتين .

ويخيل اليّ ، من تتبعي لنصوص الكتاب ، أنه أشبه شيء بما نسميه حديثا بالمذكرات التي يجمعها صاحبها في قمطر ، ويبقيها مطوية الى ما بعد خروجه من هذا العالم ، حيث انها اذا ظهرت بعده ، يكون غير متأثر ولا مبال ولا معنيّ بما يفعل تجاهها وما يقال . وقد ازداد هذا التخيل عمقا عندي حينما رجعت الى اسم الكتاب ، فلاح لي من ثناياه هذا المعنى فهو « تحفة المحبين والأصحاب » يقدمها بصفة خاصة لهؤلاء فقط في معرفة أنساب المدنيين .

وقد اتحفهم بهذه التحفة الخاصة ، لثقته في « محبتهم الأكيدة ومحبتهم الشديدة » له (١) ولذلك يتقبلونها منه بما فيها من مدح وقدح للمعاصرين ، ويدافعون عنها وعن مؤلفها بعد ذهابه ، ويحتفظون بها للأجيال القادمة ، لأنها تحفة ثمينة أهديت لهم من صديق حميم دلف الى رحمة ربه .. لا أقول ان هذا التأويل حقيقة ، ولكنه يدخل في باب الاحتمال الواسع ، ويدخله من الصيغة المذكورة آنفا .

والمؤلف طالب علم ، يبدو أن له الماما طيبا بعلم القواعد اللغوية ، وما يشذ فيه عن هذا الطريق السويّ فمرجعه الى غلبة لهجة العامة عليه ، غلبة منشؤها ومصدرها الجمود العلمي السائد في العالم الاسلامي يومئذ ، والتبلد الفكري الذي يخوض ضحضاحه آنذاك ، مرغما بسبب النكبات الكبرى التي توالت عليه من الداخل ومن الخارج ، حتى كادت تفقد أعلامه العلم الساطع ، وأدباءه الأدب الرائع ، فيتصيدون في مؤلفاتهم بعض ما يجيء في طريقهم من الصيغ العامية المتداولة في أمصارهم وأقطارهم . وقد رأينا هذا الصنيع حتى عند أعلامهم ، كابن خلدون ، والجبرتي ، وغيرهما .

القرمية

يعرف هذا الكتاب باسم خاص غريب في المدينة المنورة الى اليوم غير اسمه الرسمي ، ويكاد هذا الاسم يطغى على اسمه الحقيقي الذي وضعه له مؤلفه . وهذا الاسم الغريب الخاص هو « القرمية » بضم القاف وسكون الراء بعدها ميم مكسورة ، فياء مشددة ، فتاء مربوطة ، ولعلهم يعنون بها « ذات الأصول والأنساب » ، وهذا هو موضوع الكتاب . ولعلها مأخوذة من « قرمة الشجرة » وقرميتها عند العامة ، وهي ما تبقى من أسفلها اذا قطعت ، كقرمية الضرس وقرميته وعامية المدينة المنورة تسمي الفحمة الكبيرة الثقيلة التي تلتهب بقوة «القرمة» بضم القاف وسكون الراء .

منهج الكتاب

رتب المؤلف كتابه وفق حروف الهجاء ، فكان موفقا في هذا الترتيب . وهو يذكر الأصل الذي تنتمي اليه فروع الأسرة ، ويؤرخ له ، ويذكر ما يعن له حياله من محاسن ، أو من مساوىء ، أو من وصف لا هو في المحاسن ولا في المساوىء ، ثم يتبعه بذكر أولاده وأحفاده ويذكر ترجمة لكل منهم حسب معلوماته ، وقد يستطرد فيخرج عن محيط موضوعه ، وهو يعنى بالثروة والمثرين ، وبالعلماء وطلبة العلم ، والمدافعين عن البلد ، والموظفين الحكوميين والأهليين .. كل ذلك بعبارات سجعية خفيفة ، بعضها جيد ، وبعضها ركيك تلوح عليه سمات العامية . ومن مميزات كتابه « الايجاز » ، وعدم الاطالة في الكلام ، ويكاد المؤلف يلتزم ظاهرة لا يحيد عنها ، وهي بيان الناحية أو القطر الذي قدم منه أغلب من يترجم لهم ، وتاريخ قدومهم . وبتتبعي لهذه الظاهرة الشائعة في أجواء الكتاب تبدت لي نظرية مستمدة من واقع الكتاب ، وهي : أن أكثر سكان المدينة المنورة هم ممن قدموا اليها واستوطنوها وتناسلوا فيها ، سواء أكان ذلك في عهد المؤلف أم قبله . وان أحوالهم المادية كانت طيبة ، وفيهم التجار الكبار ، والشخصيات البارزة في البلاد التي نزحوا منها ، والعرب الأقحاح الذين آثروا العودة الى وطنهم الأصلي ، أثناء نجوم الفتن والقلاقل الخارجية والداخلية في الأقطار التي كانوا مقيمين فيها ، أو خلال ارتباحهم من أي عناء داخلي أو خارجي (٢) ، وكان السبب الدافع لكثير منهم الى القدوم للمدينة واتخاذها وطنا نهائيا لهم ، وجلب أموالهم اليها ، ينحصر في الباعث الديني قبل كل شيء ، فانهم يؤثرون أن يعيشوا في بلد الرسول الكريم ، عليه السلام ، وأن يقضوا حياتهم فيه ، وأن يستوطنوه ويستوطنه من بعدهم أبناؤهم ، حتى يحققوا فيهم وفي ذراريهم مصداق الأحاديث النبوية الواردة في فضل سكنى المدينة المنورة ، خاصة وان كثرة كبيرة منهم تنتمي أصلا الى هذه البلاد الاسلامية ، فقد أسهم أجدادهم الأولون جماعات ووحدانا في حملات الفتوح الاسلامية الى الأقطار القريبة أو البعيدة . ومما تجب ملاحظته في هذا الموقف أن معظم العالم الاسلامي يومئذ والى ما قبل الحرب العالمية الأولى كان « وحدة سياسية » يتمتع مواطنوه بحرية التنقل من قطر الى قطر ، ومن ناحية الى أخرى دونما قيود .

أسرة المؤلف

ان شجرة النسب التي تنتمي اليها أسرة المؤلف ، على ما حدثنا به في كتابه ، هي : « يوسف بن الحسن بن محمود بن الحسن » ، ويوسف هذا علم شهير ، له عدة ترجمات في أسفار التاريخ ، وذكروا أنه ولد سنة ٦٠٦هـ وتوفي سنة ٧١٢هـ بطريق العراق ذاهبا . ويبدو أنه كان يعرف بلقب « الزرنديّ » وأنه حمل هذا اللقب منذ قدومه المدينة المنورة ، وأنه أطلق على أحفاده بالمدينة فيما بعد . كما يبدو أن له صلة ما بالعراق ، وربما بما وراء العراق ، فقد توفي في طريق ذهابه اليها . ولا ندري أكان ذهابه اليها من ناحية الشرق : من ايران ، أم من ناحية الغرب : من البلاد العربية . و « زرند » — كما ورد في « معجم البلدان » لياقوت الحموي ، و « زرنج » — كما ورد في « دائرة المعارف الاسلاميه » بليدة في صحراء فارس (ايران) ، غزاها « تيمورلنك » في القرن الثامن الهجري وخربها وقتل سكانها ، فهي من بعده خراب يباب . و « زرند » أيضا مدينة قديمة كبيرة تقع بين أصبهان وسماوة ، وهي من أعيان مدن كرمان بفارس . وقد ورد في كتاب ناجي معروف « علماء ينسبون الى مدن أعجمية وهم من أرومة عربية » .. « وعز الدين الزرندي نسبة الى زرند احدى مدن كرمان : جار الله وجار رسول الله صلى الله عليه وسلم . عربي أزرجي من الأنصار » . وقد عزى المؤلف هذا القول الى كتابي « منتخب المختار »

---

(١) اقتبسنا هذه العبارة من نصوص الكتاب ، لكثرة استعمال المؤلف لها كما سيأتي تبيانه .

(٢) هذه النظرية أيدها ناجي معروف في كتابه « علماء ينسبون الى مدن أعجمية وهم من أرومة عربية » .

و « التلخيص » . وليست « زرند » اسما عربيا قديما لموضع في المدينة المنورة كما ذكر المؤلف في (ص ٧) ، وليست كذلك قرية من أعمال المدينة المنورة من جهة الشام بقرب وادي القرى ، كما نقل المؤلف عن « المغانم المطابة » للفيروز آبادي . وقد أبان محقق الكتاب أن « في المغانم المطابة (ص ١٧٠ — ١٧١) خلاف هذا النص المنقول » . فهل نزح يوسف الأنصاري من « زرند » الى المدينة المنورة في أوائل القرن الثامن الهجري ، ثم حاول منفردا العودة اليها من طريق العراق ، فمات في الطريق ذاهبا ، كما تحدثنا به النصوص؟

ويقرب من شقة هذا التخريج أن بعض آل الأنصار لا يزالون في ايران منذ الفتح الاسلامي ، بحكم اسهامهم في غالب الفتوح الاسلامية . كما يقرّب من مسافته أيضا أسماء آبائه : الحسن ، محمد ، محمود ، الحسن .. فهذه الأسماء كثيرة الدوران في ايران . واذا افترضنا هذا التأويل وسلمنا به ، تنحل عقدة لقب « الزّرنديّ » ، واسم « زقاق الزّرنديّ » في المدينة المنورة ، اذ يكون يوسف الأنصاري ، وربما كان هذا لقبه الأصلي حينما قدم المدينة ، نزل بـــدار في الزقاق المعروف بعد نزوله به « بالزرنديّ » ، واتخذها سكنا له ولأسرته ، فعرفت به الدار ، وعرف به الزقاق حتى يوم الناس هذا . وقد استمر لقب « الزرنديّ » على أسرته في المدينة ردحا من الزمن حتى عدل منه ، لسبب نجهله ، فصار اللقب قبيل القرن الثاني عشر الهجري أو فيه « الأنصاري » .. وهكذا هجر لقب « الزرندي » بالنسبة لهذه الأسرة ، ولكنه بقي الى اليوم علما على الزقاق المعروف به ، والقريب من المسجد النبوي من ناحية الغرب ، والذي يعتبر مدخلا جانبيا لسوق « الحدرة » الواقعة الى غربه من كثب .

هذا ويبدو لي أن شجرة النسب التي أوردها المؤلف ، في انتسابهم الى أنس بن مالك الأنصاري ، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا تخلو من حذف في بعض أسماء الجدود ، وذلك أنها تجعل بين عبد الرحمن الأنصاري ، مؤلف الكتاب ، وهو من أهل القرن الثاني عشر الهجري ، وجدّه أنس بن مالك ، واحدا وعشرين أبا فقط ، على أنه بين المؤلف وجده أنس ، أحد عشر قرنا . فاذا رجعنا الى النظرية الاجتماعية الحصيفة التي وضعها عبد الرحمن بن خلدون ، في مقدمته الشهيرة وطبقها على نسبه ، فظهر له أنه منقوص ومبتور فيجب أن يكون بين المؤلف وجده أنس ، ثلاثة وعشرون أبا ، لا واحد وعشرون أبا كما جاء في كتابه .

دراسة عامة موجزة للكتاب وتصنيف لموضوعاته

يحوي الكتاب كثرة من أسماء الوظائف العثمانية : المدنية والعسكرية ، في المدينـــة المنورة ، مثل : « مشيخة الفراشين بالمسجد النبوي » ، « الترجمة بين القاضي والشعب » — لأنه تركي وهم عرب — « نيابة القضاء » ، « القضاء للأتراك » ، « الخطابة والامامة بالمسجد النبوي » ، « الافتاء » ، « مشيخة القرآن » ، « المحضرية بالمحكمة الشرعية » ، « النوبتجيّة » ، « الأسباهيّة » .. الخ .

وهناك وظائف تولاها « مدنيون » خارج محيط المدينة ، مثل « حكم بندر » مصوّع ، و « أمانة بندر » ينبع .. الخ . وقد عني الكتاب عناية خاصة بالثروة والأثرياء في المدينة ، حتى ليكاد يكون أحصاهم عدا . وقد أفادنا ، ضمنيا ، بأن ثراءهم يعود الى أحد أمرين : اما تعاطي التجارة ومزاولة الصناعة ، واما الدخول في سلك الوظائف الحكومية أو الأهلية ذات العلاقة المباشرة بالمال . ولم يمر بي في الكتاب ذكر مزارع أثرى من زراعته . ان الزراعة تأخذ وتعطي ، وتعطي وتأخذ ، ومن ثم لا يكون فائضها الدائم ذا حجم كبير ثابت .

ويقسم المؤلف الأثرياء في المدينة الى فئتين : أصحاب ثروة ، وأصحاب ثروة عظيمة . ويتراءى لي من محتوى عبارات الكتاب ان من ملك عشرة آلاف غرش الى ثمانين ألف « مشخص عتيق » يعتبره المؤلف من الأثرياء في البلد ، ويشيد بغناه . ويجب أن لا ننسى في هذا الموقف قوة الشراء النقدية اذ ذاك .

ويحتوي الكتاب أيضا نقدا موضوعيا ، ونقدا غير موضوعي . فمن أمثلة النقد الموضوعي قوله في « عثمان أغاي القلعة السلطانية » أي رئيسها : « وكان رجلا مباركا ، ليس له من الأمر شيء ، وانما التحريف والتصريف فيها لكواخيها — نوّابه — وكان هذا سبب الفتن ، وتطلب (٣) الجهال على العقال » (ص ٥٢) . ويتم اطار صورة النقد اذا تذكرنا أن صيغة « مبارك » الواردة في أول العبارة وصفا لعثمان ليست مدحا له ، وانما هي ذم في غلاف مدح ، فهي في عامية المدينة الدارجة تعني : « الساذج » و « المغفل » .

ومن أمثلة النقد غير الموضوعيّ في الكتاب قوله عن بعضهم : « فاسق ، فاجر ، نمّام بين الناس ، وما يشك فيه أنه من أخوان الشيطان الخناس ، وكذلك فلان أخوه ، زاد عليه بالكذب وما هو في معناه » (ص ٣٤٤) . وقوله عن آخر : « وكان بذيء اللسان ، لا يكاد يسلم منه انسان » . وقوله عن ثالث : « وكان كثير المزاح ، ذا وجهوقاح » (ص٣٨٨) .. فمثل هذا النقد ليس موضوعيا ، وانما هو شخصي محض ، وهو أقرب الى الهجاء وذكر المثالب الشخصية .

ومن نقده غير الموضوعي حملته على بعض من ينتسبون الى الأنصار أو أية أرومة عربية قديمة ، فبيت « شعيب » مثلا لا يقر لهم بنسبهم الى الأنصار ، لكثرتهم ولو ورد الحديث النبوي الشريف عن قلة الأنصار في آخر الزمان . وهذه حجة واهية ، فالبيت الواحد مهما يكثر فهو قلة ضئيلة بالنسبة للفيض الزاخر من الأمة الاسلامية ، كما يفهم من فحوى الحديث النبوي . وهناك أنساب رفض اقرارها وجاهر بانكارها ، ولم يقدم أية حجة أو مستند على هذه الدعوى . ونافي الشيء مطالب عقلا ونقلا ، بدعم نفيه بحجج معقولة ومقبولة . وآية عدم موضوعية نفيه هي اقراره بنسبة بيت « البكري » في مصر الى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فقد اتضح من نصوص الكتاب أن من روافد هذا الاقرار منه أنهم في مصر لا في المدينة ، وأن له صلة نسب الى بيت البكري هذا ، من جهة الأمهات . (ص ١٠٧) .

وكما تتبع المؤلف الأثرياء حتى ليكـــاد يحصيهم ، ويذكر أسباب ثرائهم ، فكذلك هو يتتبع العوامل السياسية في البلد ، وما تنتجه من مختلف النتائج الايجابية أو السلبية ، فلحوادث الفتن والاضطرابات التي قد تودي بالأفراد والعشرات ، أمكنة بالكتاب . فمثلا تجد فيه حديثا مسهبا بعض الشيء من فتنة أبي بكر جبريل المدني ، وزير الشريف بركات ، صاحب مكة . وفتنة الوزير الآخر محمد الخلفاني ، التي يبدو أن لمحمد الجنقريّ ضلعا فيها . وفتنة حسن ظافر التي أدت الى قتله بمصر سنة ١٠٨٣هـ .. الخ . والمؤلف في أغلب الأحيان يفصل أسباب هذه الفتن الموبقة ، ونتائجها ، ويجملها في بعض الأحيان . وقد فهمنا من سياق أحاديثه عن الفتن والاضطرابات السائدة في المدينة اذ ذاك ، أنها قد أثمرت وجود فتيان شجعان يذودون عن الحمى ، ويخوضون المعارك ، وربما قتلوا في المعارك أو غيلة وغدرا من قبل خصومهم الشخصيين أو خصومهم الحزبيين . كما قد

(٣) يبدو لي أن في صيغة : (وتطلب) الواردة في المطبوع تحريفا ، لعله جاء من الأصل . وربما كانت صحة العبارة : (وتكالب الجهال على العقال) .

نشأت ثقافة حربية متواضعة ، نرى من آثارها قيام « عبد القادر نقيب زادة » بتأليف كتاب في معرفة الرمي بالسهام وغيرها . (ص ٤٧٦) .

ويظهر من نصوص الكتاب أن المدينة في القرن الثاني عشر الهجري قد استقبلت أفواجا كثيرة من الأسر الاسلامية والعربية النازحة اليها من أوطانها . وهذه الهجرة الفياضة أثمرت أمرين ، أحدهما : بدء تطور سكاني ، وثانيهما بدء تطور عمراني . ونرى عبد الرحمن الأنصاري المؤلف حيال هذا الفيض الطامي من المهاجرين الكثر ، وهو يحاول ما استطاع أن يحافظ على مكانة أسرته العريقة ، يقاوم بكل قواه فكرة الاشتراك مع بعضهم في النسب الى الأنصار ، ممن يقول بذلك منهم . وكان بعض هؤلاء القائلين بذلك ، فيما يبدو من الكتاب ، ذوي وجاهة . وحينما نزح من المدينة الى مكة وبقي بها ١٧ عاما لأسباب موجبة ، واطلع فيما اطلع على كتاب ألّفه « جارالله بن فهد المكي » ، وسماه باسم ثقيل هو : « القول المؤتلف : في نفي نسبة الخمسة البيوت المنسوبين الى الشرف » ، ما كان منه الا أن اهتبل الفرصة فنسج على منواله ، وألف كتابا دعاه : « نزهة الأبصار ، في عدم صحة نسب الخمسة البيوت المنسوبين الى الأنصار » . (ص ١٠٩) . وقد جاء اسم كتابه هذا ، أشد ثقلا من كتاب ابن فهد . وخلاصة ما أريد أن أقوله في الكشف عن الدوافع الخفية التي جعلت المؤلف يقف موقفا سلبيا حازما أمام « الوافدين » ، هي أنه ربما تكونت لديه عقدة نفسية واجتماعية حيال هؤلاء . يدلنا على ذلك موقفه الايجابي المتصاعد الثابت في تمجيد أسرته ، ومن يتعلق بهم بوساطة قرابة أو صهر ، أو حتى « محبة أكيدة أو صحبة شديدة » . انه يريد أن يبقى على وجودهم وكيانهم القديم .. بكل ما أوتي من وسائل الدعاية المعروفة في عصره ومصره . ولذا نراه يصف جده بقوله : « الأمجد » ، ولذا نراه يضفي برودا محبرة من الثناء والتقدير على أسرته في المدينة المنورة ، واذا ترجم لأحد منهم فانه يرفع مستواه ، ويوسع ترجمته ، ويوضح عظمة من ينتمي اليه هذا المترجم في دين أو دنيا (ص ٢٢٧ و ٢٢٨) .

وبوسع المؤلف الحصيف أن يلتقط من الكتاب ما شاء من الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية في المدينة ، مثلا : لعبة الشطرنج كانت سائدة في المدينة اذ ذاك ، حتى ان التاجر « بدر أبو خشيم » انهمك في لعبها مع بعض أصحابه الذين مرّ بدارهم في طريقه مع قافلة تجارية له الى مكة ، فنسي القافلة حتى فاتته . (ص ٤١٥) وهناك كتبة خاصون للعروض التي يرفعها المستدعون للدولة العلية ، يكتبونها لهؤلاء بالتركية (ص ٣١١) وللموسيقى هواة معروفون (ص ٣١٧) . ويوجد في المدينة الأقوياء الخارقة قوتهم ، ومن لهم معرفة بهندسة الأرض والبناء . والأكلة الذين قد يلتهمون الكبش الكبير (ص ٣٧٠) وكانت تقام اجتماعات رتيبة ، ودورية وأسمار كذلك في المنازل المناسبة (ص ٤٧٧) . ويوجد علماء وصلحاء ووجهاء في المدينة وشعراء ظراف وغير ظراف ..

ويسود المدينة جو تركي ، فقد انتشرت لغة الحاكمين الأتراك في أوساط المدنيين ، وتسربت عشرات الألفاظ التركية والمشتركة الى لهجتهم . وهناك طلبة علم يدرسون العلوم الاسلامية في المسجد النبوي على أيدي مشايخ معترف لهم بالمكانة العلمية .

وقد حوى الكتاب كثيرا من الصيغ الأجنبية الوافدة مع الدولة الحاكمة . وقد شرح محقق الكتاب معظمها فكان موفقا في هذا الشرح ، ولكونها قد انقرض أغلبها من الاستعمال في اللهجة العامة الدارجة بالمدينة المنورة ، اليوم ، اللهم الا ما قل وندر .. فها نحن أولاء نثبتها ، ونورد شرحها فيما يلي للتسجيل والافادة والامتاع :

الكلمة الأجنبية	شرحها بالعربية
آغا	رئيس أو سيد أو رجل عظيم
أودباشي	رأس الجماعة من العساكر
اسباهية	الفرقة الكبيرة من الجيش
اسطه	الماهر في صناعته
أطروش (أطرش)	أصم
انقشاري	العسكر الجديد
باش اختياري	رئيس قدماء المحاربين
برش	نوع من المعجون المخدر
بلطجي	جندي يحمل الفأس ليقطع الأشجار
بيرقدار	حامل العلم
جامكية	راتب
خزينة دار	متولي أمر الخزانة
جاووش	جندي ذو رتبة عسكرية دنيا
خواجه	معلم أو كاتب أو تاجر أو شيخ أو سيد
دزدار	حاكم منطقة
درويش	عضو في طريقة صوفية
دفتر دار	مشرف على الشئون المالية أو وزير المالية

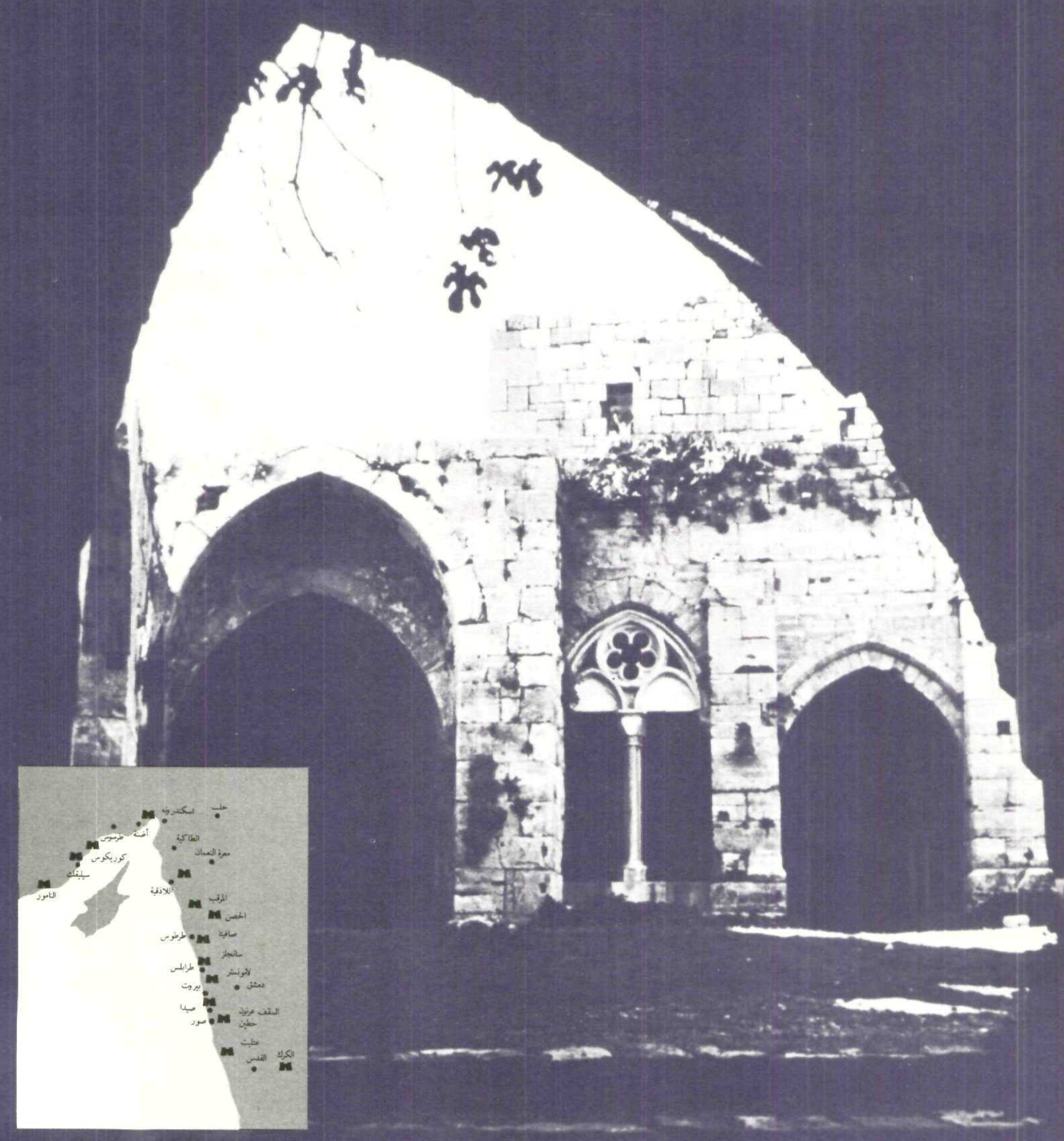
الكلمة الأجنبية	شرحها بالعربية
فرمان	عهد السلطان للولاة
قاووق	قلنسوة طويلة لغطاء الرأس
كتخدار	نائب المسؤول أو وكيله
كدل	التمكين من صناعة ما
كشك	قبة
كيخية – كخيا	نائب المسؤول أو وكيله
مستحفظان	العسكر الجديد
ملا	طالب علم أو عالم
طبنجه	مسدس أو غدارة
طرلية	النقود ذات الطرة السلطانية
طواشية	المخصيون
مشد	مشرف على الحجرة النبوية
وجاق	طائفة من الجند
الينكجري	العسكر الجديد الذي أسس في عهد السلطان مراد الأول

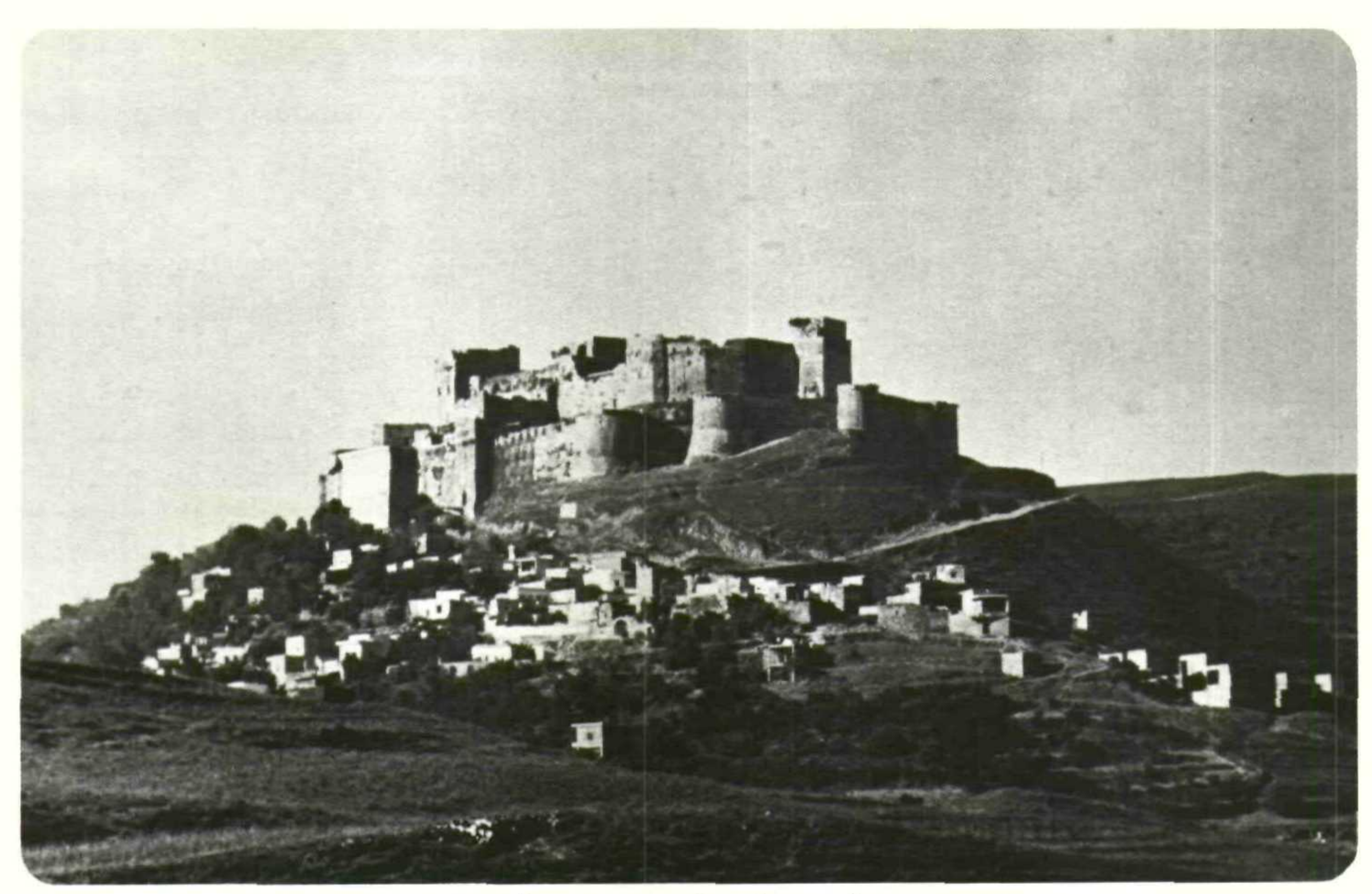
ومن هذه النواحي التي المعنا اليها تتكشف لنا بيئة المدينة المنورة في ذلك القرن كما هي ، حتى لكأننا نعيش مع المؤلف الفاضل في ذلك الظرف . وهذه مزية مهمة للكتاب ، من حقها أن تدرس دراسة واعية وافية لأنها تمثل واقعا كان حيّا ، لولا تسجيل عبد الرحمن الأنصاري له في كتابه ، لبقي رهن تلافيف الغموض .

وهناك ظاهرة أخرى في الكتاب ، فالمؤلف يلتزم عبارات معينة لا يريم عنها حول ، وكلما جاءت مناسبتها كررها بذاتها . ومنها قوله : « تحبّ الجمالة ، في كل حالة » . « وكان رجلا كاملا ، عاقلا فاضلا » . « وكان بينهما محبة شديدة ، وصحبة أكيدة » . « وكان لطيفا ظريفا » . « لطيف الذات ، ظريف الصفات » . « وسافر الى الروم وعاد بما يروم » . « وكان صاحب ثروة عظيمة » . « وكان حسن الخطّ والحظ » . « وله أخلاق رضية ، وكمالات مرضية ، وهمة علية » . « رجل كامل مؤدب وهمام فاضل مهذب » . « رجل متحرك » . « وكان رجلا شاعرا ماهرا » . « كثير الحركة ، قليل البركة » .. الخ .

وفي الكتاب بعض أسماء العلوم التي كان الطلبة يدرسونها على أيدي مشايخهم بالمسجد النبوي في عهد المؤلف وهي : الفقه ، والحديث ، والنحو ، والمنطق ، والمعاني ، والبيان ، والبديع . وهذه العلوم لا تختلف كثيرا عما أدركنا تدريسه بالمسجد النبوي الشريف ، ونحن أطفال في الأربعينات من هذا القرن ■

من القلاع والحصون في المشرق العربي





قلعة « الحصن » ، أو حصن الأكراد في جنوب سوريا ، بأبراجها الحصينة .

شهد المشرق العربي في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي عدة حملات حربية استهدفت غزو أجزاء من الأراضي العربية والاستيلاء على بعض الأماكن الإسلامية المقدسة. وقد أحس الغزاة الافرنج بأن هنالك مخاطر عديدة تهددهم وتعوق سير خطوطهم التموينية داخل الأراضي العربية مما حملهم على إشادة العديد من القلاع والحصون الاستراتيجية في أماكن متفرقة من فلسطين والأردن ولبنان وسوريا .. بيد أن هذه القلاع الحصينة ما عتمت أن أخذت تتضعضع وتتهاوى تحت تأثير ضربات مواكب الإيمان وطلائع النصر الإسلامية بقيادة صلاح الدين الأيوبي .. فراحت تتساقط واحدة تلو أخرى حتى تم للمسلمين بفضل إيمانهم بالله، إلحاق الهزيمة بالغزاة واسترداد القدس الشريف. وبالرغم من مرور مئات السنين على بناء تلك القلاع التاريخية فإن معظمها ما يزال قائما حتى الآن يشهد بعزيمة تلك الجحافل الإسلامية التي استطاعت دكها ومحاصرتها والاستيلاء عليها ..

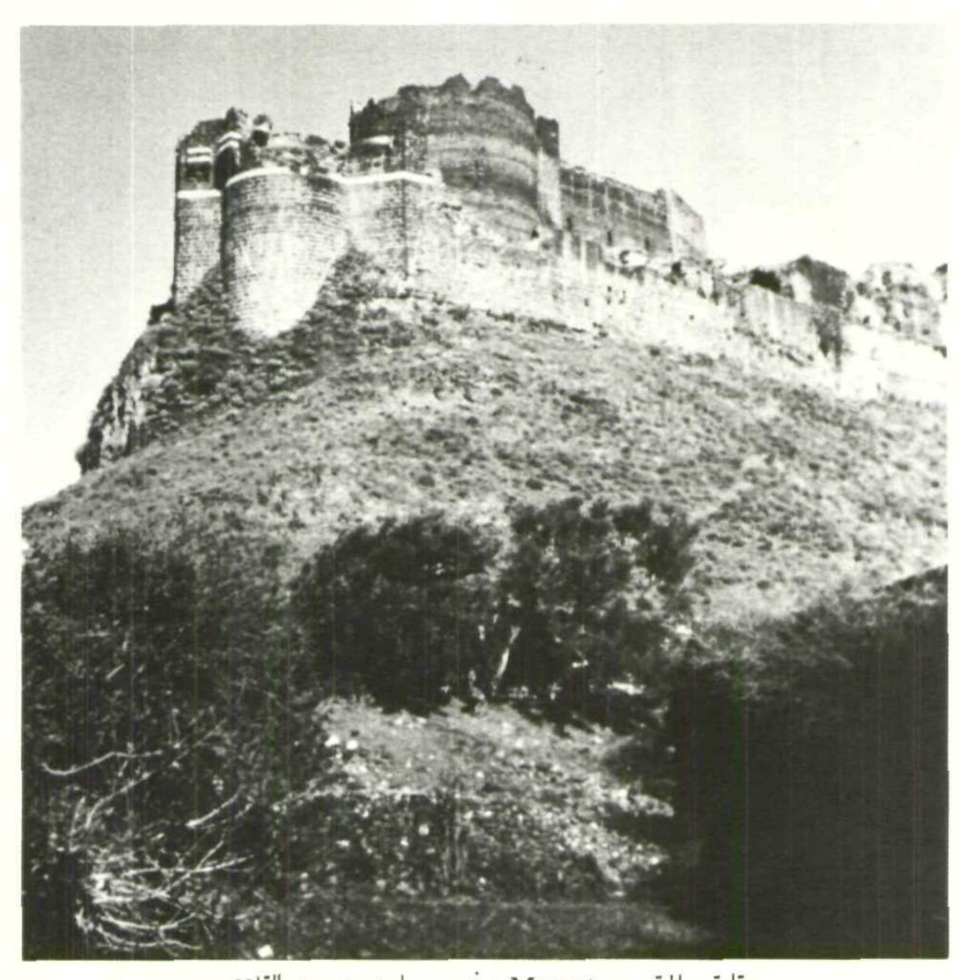
جبل الفرسان

كان من أهم التحصينات الحربية التي شهدتها القرون الوسطى هي تلك القلاع والحصون التي بناها الافرنج أثناء حملات الغزو التي شنوها على بعض البلاد العربية والاسلامية ، وأبرز هذه القلاع وأهمها « قلعة الحصن Krak des chevaliers » الواقعة بين معرة النعمان وطرابلس الشام ، والتي ظلت حصنا منيعا في وجه المعارك الحربية المتعاقبة طوال ١٥٠ عاما ، وكان أشد ما يعيق المهاجمين عليها جدارها الجنوبي الضخم الذي يبلغ سمكه نحو ٣٧ مترا. فقد بلغت هذه القلعة من المناعة والتحصين بحيث أطلق عليها اسم « جبل الفرسان » .

لقد حاصر المسلمون قلعة « الحصن » هذه اثنتي عشرة مرة دون أن يتمكنوا من الاستيلاء عليها ، لكنها سقطت أخيرا على يد السلطان بيبرس عام ١٢٧١م ، ولم يكن سقوطها نتيجة معركة حامية ، وانما كان نتيجة حيلة بارعة قام بها جنود المسلمين ، وتتلخص في أن رسالة نقلت الى القلعة على أنها مرسلة من قبل القائد الأعلى في طرابلس الشام يأمر فيها فرسانه بالاستسلام ، فاستسلموا ، وغادرت الحامية القلعة متجهة نحو الساحل .

وقد بنيت « قلعة الحصن » في القرون الوسطى ، وهي تضم بين جدرانها مختلف الوسائل الدفاعية التي كانت معروفة في ذلك الحين ، كما أنها تشير بايجاز الى تقدم البناء العسكري في المشرق العربي آنذاك . وتتميز القلعة بأبراجها القوية المحصنة وبجدرانها العلوية المزودة بفتحات وراجمات كانت

تعد من أحدث الأنواع المعروفة آنذاك. أما جدرانها الداخلية فمسلحة بقطع كبيرة من الكتل الصخرية. كما أقيمت في الأماكن الحساسة منها مجموعة من القلاع الأخرى المنيعة تتكون كل منها من ثلاثة أبراج مترابطة مع بعضها البعض . واستخدم في بنائها أجود أنواع الحجارة المربعة المنحوتة . كما استخدم في بناء جناحها الداخلي كتل من الحجارة يبلغ طول الواحد منها نحو متر ، وارتفاعه نحو ستين سنتمترا . وأقيمت أمام مدخلها وسائل دفاعية ثابتة . ويوجد في الممر المسردب الذي يفضي الى الجناح الداخلي ثلاثة منعطفات تحميها راجمات ضخمة ، وأربع بوابات كبيرة ، وشعرية حديدية . ومع كل هذه التحصينات كانت قلعة الحصن تبدو جميلة النسق منيعة المظهر ، فقناطرها المزركشة والسراديب التي تقود الى مقر القيادة فيها تنم كلها عن مستوى مهارة البنائين ومدى براعتهم في فن البناء خلال القرون الوسطى . ولا عجب ان وصفها « لورنس » العرب بأنها من أكثر قلاع العالم اثارة واعجابا .



قلعة « المرقب – Marqat » في سوريا ، وهي من القلاع الحصينة التي تولى « الاسبتاريون » رعايتها والحفاظ عليها .

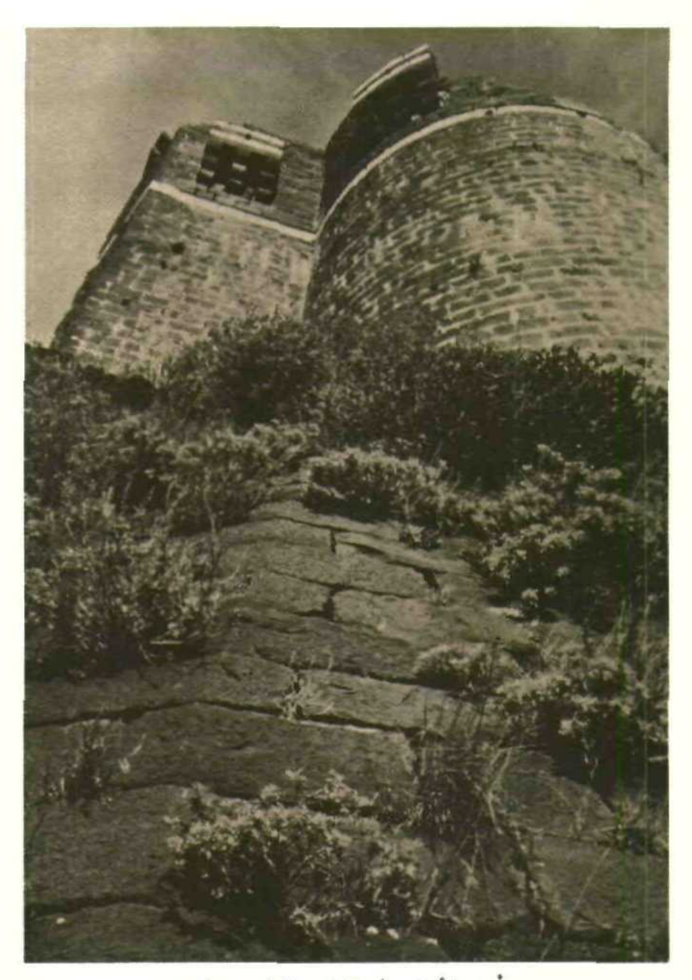
القلاع في الشرق العربي

بالرغم من أن قلعة الحصن تعد من أهم القلاع التي بناها الافرنج في القرن الحادي عشر ، فان هنالك قلاعا أخرى عديدة تكاد تضاهيها منعة وتحصينا . فمن بادية الشام حتى جبال طوروس ، كانت تحصينات الافرنج تطل على كل ممر استراتيجي ، ومرفأ ساحلي . وفي البتراء كانت أبنيتهم تتربع فوق الصخور الحارقة ، وفوق مخلفات معابد النبطيين القديمة ، كما كانت قلعة « لامونستر – Le Moinestre » الجبلية تربض على ارتفاع نحو ٢٠٠٠ متر تكسوها الثلوج طوال منتصف العام . وفي منطقة « الحابس جال جلدق – El Habis Djal Djaldak » قاموا بتحصين الكهوف المواجهة للصخور الكبيرة . وكانت قلعة « السقف عرنون » « Beaufort » تطل على نهر الليطاني . فمعظم هذه القلاع والحصون كان الهدف من اشادتها حماية الحدود المصطنعة التي انتزعها الافرنج من بعض الدولة الاسلامية في المشرق العربي .

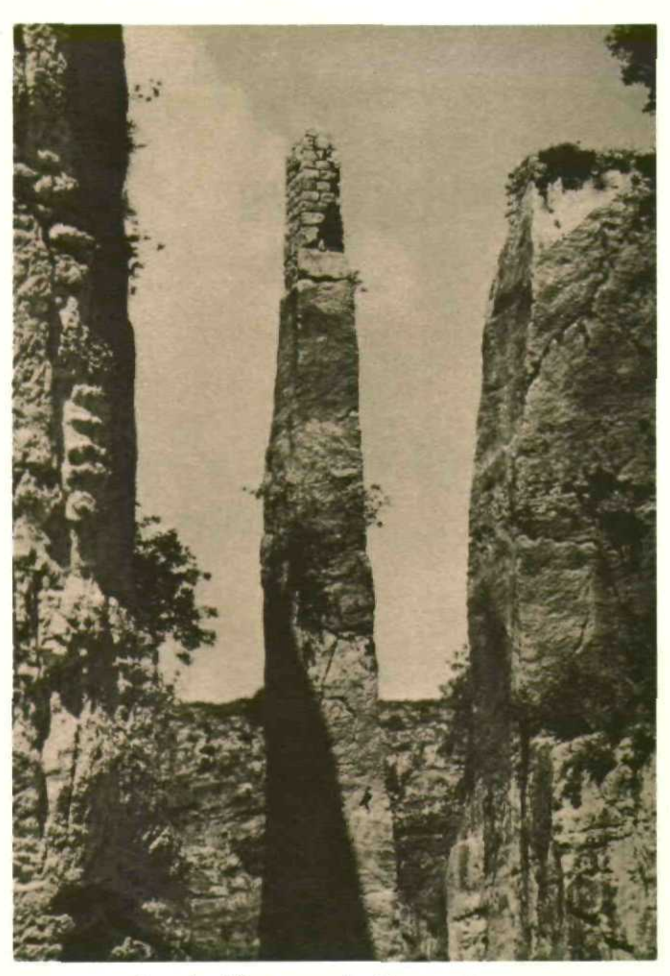
بيد أن ثمة دافعا آخر يكمن وراء بناء هذه القلاع والحصون المنيعة ، هو قلة عدد رجال الافرنج المحاربين . فبالرغم من ضخامة تعداد الجيش الذي أعده الافرنج في كل من « نيقيا – Nicaea » أو « ازنيق – Iznik » عام



قلعة « النامور – Anamur » التي كانت تقوم بحماية شواطىء أرمينيا التركية .



أحد الأبراج في قلعة « المرقب » وقد زود بالراجمات لحمايتها مـن المهاجمين .



عمود مـن الصخر طوله نحو ٣٠ مترا يواجه احدى القلاع الاستراتيجية الواقعة بالقرب من مدينة اللاذقية .

١٠٩٧م ، فان الخسائر الفادحة التي مني بها هذا الجيش خـلال مسيرته طـوال أشهر الصيف عبر الأناضول Anatolia وفي معركة « اسكي شهر — Dorylaeum » كانت كبيرة للغاية ، بحيث أنه لم يبق من أفراده أكثر من ٢٥ ألف رجل لمهاجمة «انطاكيا — Antioch » وبعد حصار انطاكيا وسقوطها نصب « بوموند — Bohemund » ، ملك صقلية ، نفسه ملكا على انطاكيا . واتجه « بولدوين — Baldwin » دوق مقاطعة بولوني في فرنسا مع فرقته عبر نهر الفرات للاستيلاء على « الرها — Edessa » . وأثناء تحرك الجيش الرئيسي باتجاه الجنوب ، انفصل قواد آخرون عن الجيش وقاموا باقتطاع ممالك لهم في مناطق جميلة . وفي الوقت الذي وصل فيه الافرنج الى القدس عام ١٠٩٩م ، لم يكونوا أكثر من ١٥٠٠ فارس وحوالي ١٠٥٠٠ جندي . ولم تجدهم نفعا لا النجدة السريعة ، ولا الحملتان الثانية والثالثة . وازاء ذلك ، وأمام هذا النقص في الرجال لم يكن هناك بديل من اقامة التحصينات ، وكان على الحجارة أن تقوم مقام الرجال .

لقد كانت قلاع الافرنج من الناحية المعمارية ، امتدادا للفن المعماري الفرنسي الذي طغت معالمه وأساليبه على كثير من بلدان العالم خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، وأتت هذه القلاع نتيجة لدمج الخبرة الأوربية بالخبرتين العربية والبيزنطية ، فكان ان أحدثت تغييرا جذريا في فن التحصينات العسكرية .

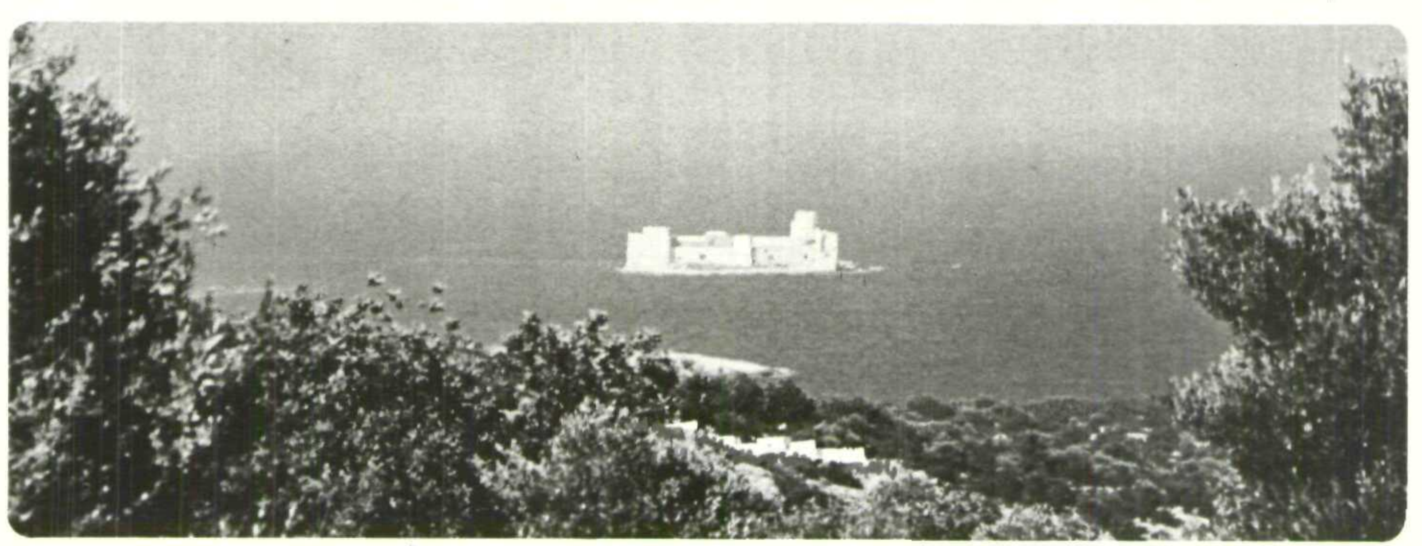
فعندما جاء الافرنج الى «الشرق — Levant » في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي ، لم تكن التحصينات العسكرية على جانب من الاتقان والدقة ، فالقلاع كانت دفاعية بحيث كان باستطاعة رجل واحد حمايتها . كما انه كان من الممكن لرجلين حصارها ، يقف كل منهما على جانب من البوابة . الأمر الذي حدا بهم الى بناء قلاع هجومية تختلف اختلافا كبيرا عن القلاع المعروفة آنذاك في هذه المنطقة .

وقد كانت أول خطوة خطاها الافرنج في هذا المضمار أنهم استبدلوا الحصون المستديرة المعرضة للخطر بأخرى مربعة الشكل وطوروها بحيث صارت تجمع بين برجين أو أكثر ، وأقاموا فيها الجدران الواقية والأبراج المستديرة الناتئة ، مما مكّن المدافعين من استخدام النار في وسائل الدفاع . وكذلك زودوا الجدران الواقية للقلاع بمداخل جانبية لتمكين الحامية من القيام بدور هجومي .

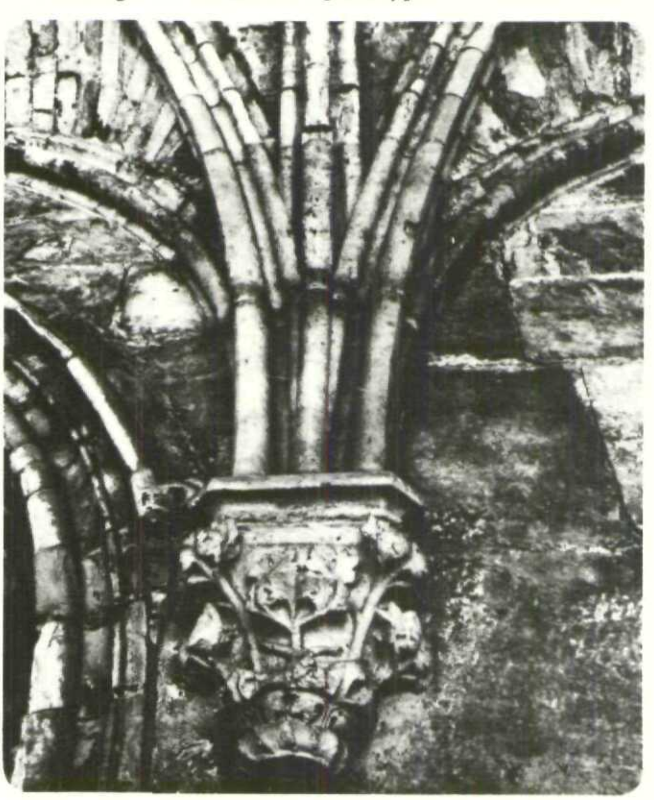
غير أن هذه المداخل كانت موزعة بشكل كان يكشف الجانب الأيسر للمقاتلين أثناء عودتهم الى القلعة . ولتفادي نقطة الضعف هذه ، قام الافرنج بتطوير المداخل الملتوية للقلاع بحيث بات على المهاجمين في حال محاولتهم اقتحام القلاع أن يقوموا بقطع عدد من الممرات المحجوبة مما يعيق عملياتهم الهجومية . كما أعاد الافرنج استخدام البوابة المصنوعة من القضبان الحديدية التي يرجع عهدها الى الرومانيين ، فوق المدخل الرئيسي للقلعة حيث يجري انزالها في حال أي هجوم عليها .

لقد تحرى الافرنج الدقة في اختيار مواقع قلاعهم معتمدين في ذلك على طبيعة الأرض الدفاعية وعلى امكان الاتصالات بالاشارات النارية التي كانوا يتبادلونها بين القلاع ، لا سيما في المناطق الشاسعة .

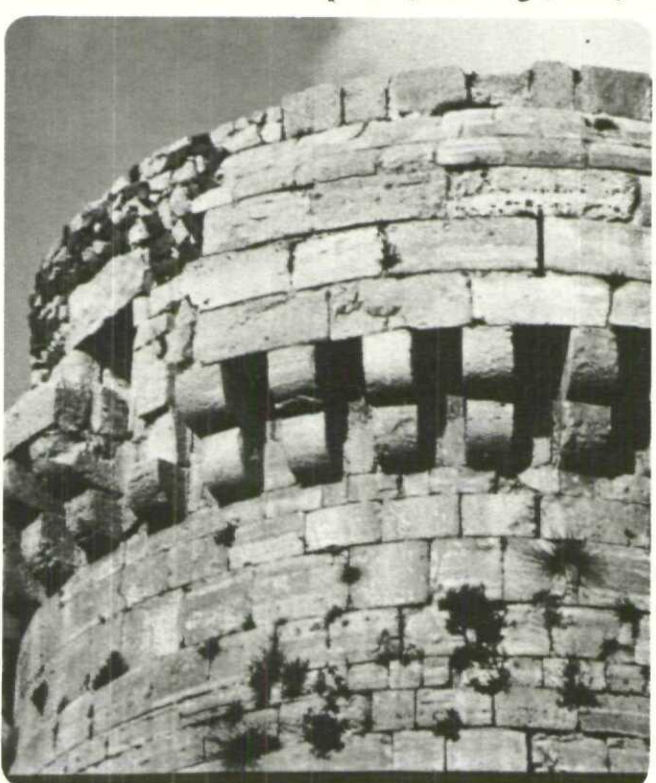
ولقد كانت قلعة الحصن واحدة من سبع قلاع رئيسية تضمها شبكة واحدة يجري الاتصال بينها بواسطة الاشارات النارية . وعندما كان البطل « صلاح الدين الأيوبي » يحاصر قلعة الكرك عام ١١٨٣ ، كان قائد القلعة قادرا على ارسال رسائل ليلية بواسطة الاشارات النارية الى قلعة الملك « داوود » في القدس على بعد ٨٠ كيلومترا .



قلعتان تقعان بين مدينتي ميرسن وسيليفك في جنوبي تركيا ، احداهما في البحر والأخرى على اليابسة ، وكانتا تشكلان سلسلة من الاستحكامات التي تتولى حراسة الشواطىء التركية من المهاجمين .

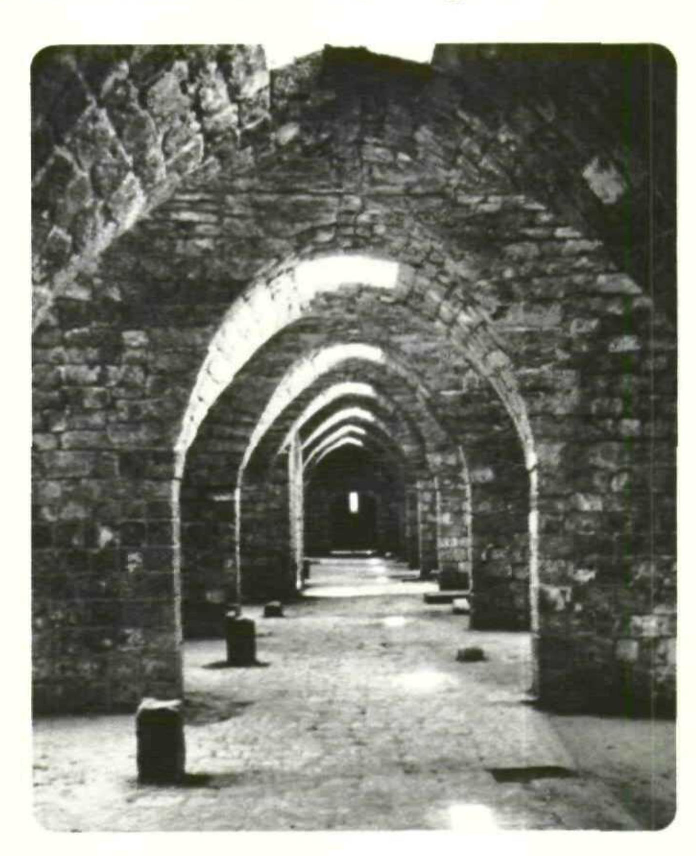


كانت قلعة « الحصن » بالرغم من مناعتها تبدو جميلة النسق وقد استخدم في بنائها أجود أنواع الحجارة المنحوتة .

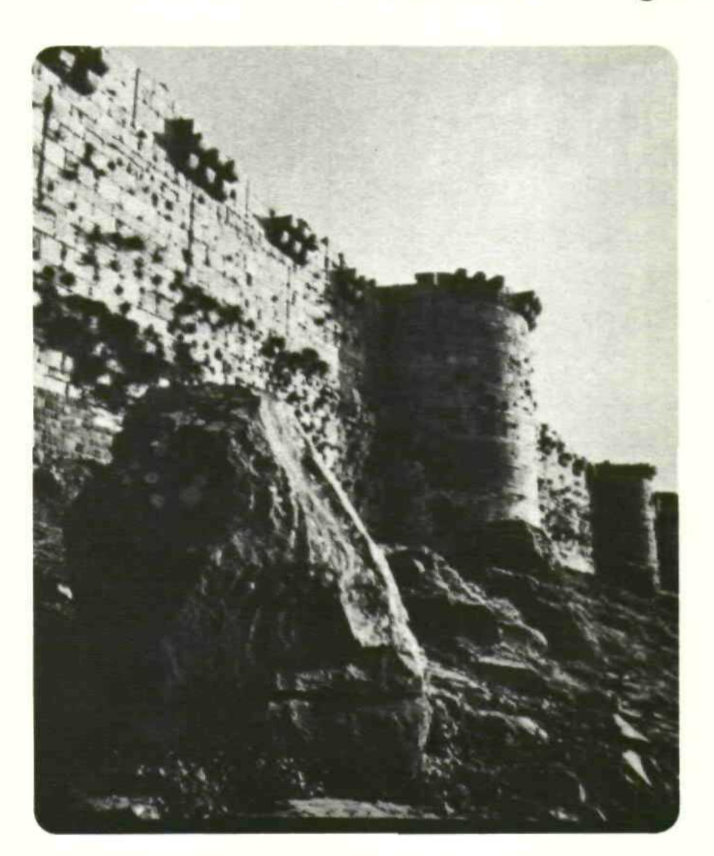


احد ابراج قلعة « الحصن » وقد ظهرت احدى الفتحات التي كانت تستخدم للراجمات .

احدى القلاع المشادة في بلدة « صافيتا – Safita » السورية حيث يبدو برج القلعة المطل على البلدة والذي ما زال قائما حتى الآن .



اصطبلات الخيل في قلعة « سانجلز – St. Giles » نسبة للكونت ريموند دي جلز الذي حاصر القلعة في طرابلس الشام .



كان أشد ما يعيق مهاجمي قلعة « الحصن » ، جدارها الجنوبي الضخم الذي يبلغ سمكه نحو ٣٧ مترا



مدخل قلعـــة « المرقب » وقد أقيـم فوق قنطرة ضخمة تقع فوق خندق مائي يحيط بالقلعة .

بدأ الافرنج باقامة تحصيناتهم العسكرية لدى غزوهم الأراضي المقدسة تقريبا . غير أنه بمرور الوقت وبانحسار نفوذ التوسع الذي انتهى بسقوط مدينة « عكا » في أيدي المسلمين في عام ١٢٩١ م ، تغيرت طبيعة هذه القلاع وأهدافها .

فقد قاموا في خلال الفترة الأولى من استيلائهم على البلاد بتقوية التحصينات البيزنطية والعربية القائمة آنذاك . كما قاموا في الوقت نفسه ببناء قلاع من شأنها التقليل من أهمية مواقع المسلمين الحصينة ، وتوسيع نفوذهم شرقا باتجاه الأراضي الاسلامية . وبعد أن امتد نفوذهم الى أعماق بادية الشام ، قاموا ببناء قلاع هجومية مثل قلعة « النمرود — Subeiba » على سفوح جبل الشيخ ، » وقلعتي « الشوبك » ، و «الكرك» Montreal & Kerak عبر البحر الميت . وقد ساعدت هذه القلاع الحصينة في تعزيز قوتهم ومنعتهم .

وفي الفترة الثانية ، فترة تراجع فلولهم المنهزمة أمام جحافل الاسلام المؤمنة ، اضطر الفرنج الى الاعتماد على مهاراتهم العسكرية ، وفي تلك الفترة بنوا أروع قلاعهم .

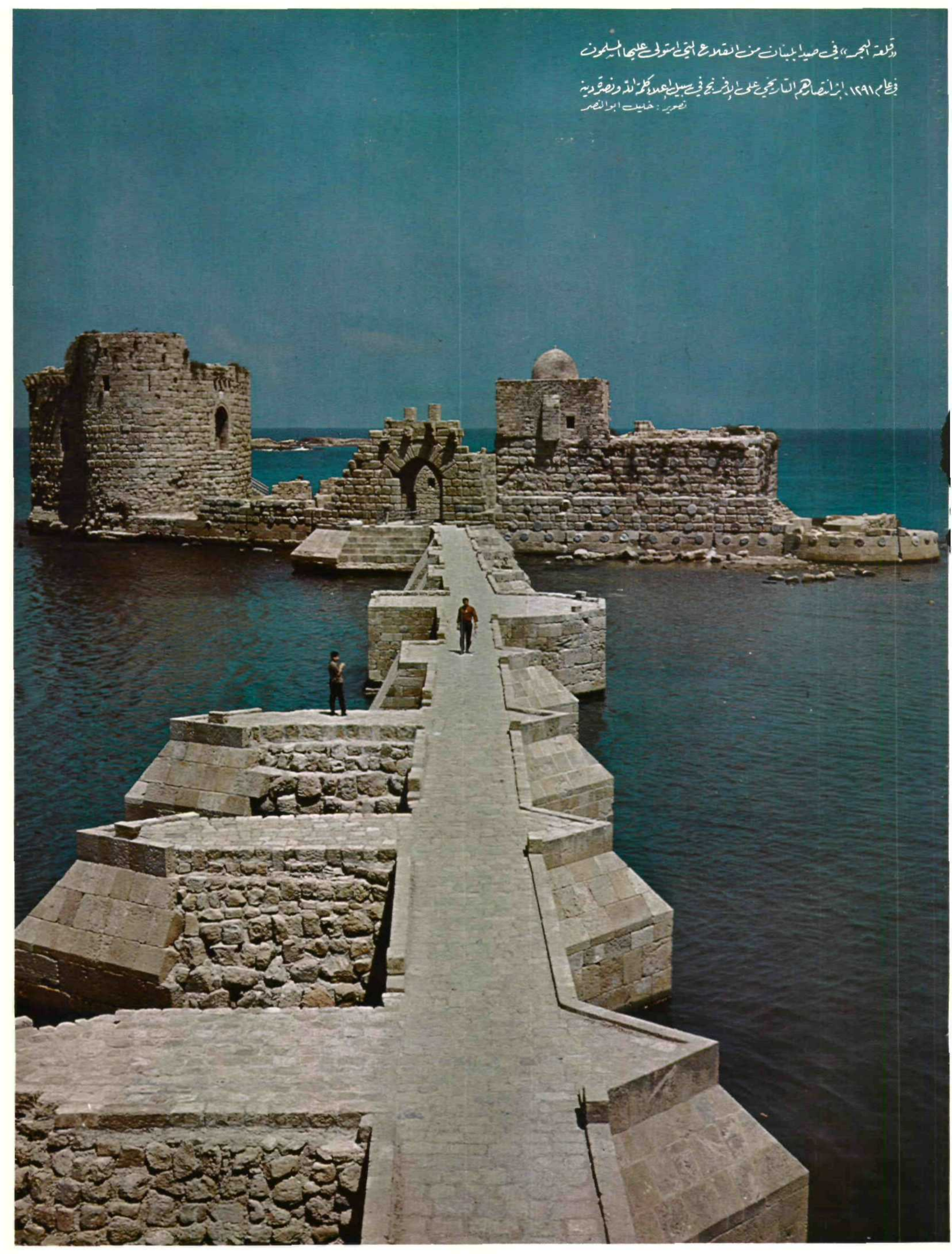
ومن ناحية أخرى فقد كان للنقص المتزايد في أعداد رجال الافرنج وتزايد ضربات المسلمين ، أن قام الافرنج ببناء عدد من القلاع المتقنة التحصين مثل ، قلعة « عتليت — Chastel Pelerin » و قلعة « المرقب — Margat » . وتتميز القلعة الثانية بسراديبها الأرضية التي صممت لتخزين مؤن تكفي لألف شخص في حالة حصار يستمر خمس سنوات ، بينما تتميز القلعة الأولى بحصانة مخازن التموين وسمك جدرانها التي تبلغ نحو ٧ أمتار ، والتي تفصل بين المنطقة البحرية التي أقيمت عليها القلعة نفسها وبين اليابسة . وما يزال أحد أبراج خط الدفاع الثاني التابع لقلعة المرقب قائما حيث يصل علوه الى نحو ٣٥ مترا فوق ما يحيط به من أنقاض .

وعلى الرغم من أن هذه القلاع كانت شبه اقطاعيات ، فان تكاليف صيانتها ونفقات المحافظة عليها كانت تثقل كاهل معظم حكام الافرنج مما اضطرهم الى بيعها أو اهدائها الى بعضهم البعض . وفي منتصف القرن الثاني عشر الميـــلادي كانت ثمة منظمتان اسندت اليهما مهام رعاية هذه القلاع والحصون ، هما : « الاسبتاريون — The Hospitallers » و « الهيكليون — The Templars » .

وأخيرا سقطت هذه القلاع والحصون كلها في أيدي المسلمين ، ولم تستطع صد جحافل الاسلام القوية بايمانها ■

اعداد : يعقوب سلام

تصوير : براين سميث ، وخليل أبو النصر ووليام تريسي .



«قلعة البحر» في صيدا بلبنان من القلاع التي استولى عليها المسلمون
في عام ١٢٩١ ، إبان انتصارهم التاريخي على الإفرنج في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه
تصوير : خليل ابو النصر



الجزيرة الاصطناعية في ميناء رأس تنورة البحري حيث تؤمها الناقلات
الضخمة لتحمل زيت المملكة العربية السعودية إلى الأسواق العالمية (راجع المقال)
تصوير: شيخ أمين